حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثامن . شوال ١٤٣٩هـ / تموز ٢٠١٨م

٨

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة في العصر العبّاسي

دراسة في أحوالها السّياسية والفكرية

(١٣٢-٣٣٤هـ)

القسم الأول

الدكتور. جابر رزاق غازي(*)

كلية الآداب - جامعة الكوفة

«أ»

المقدمة وتحليل المصادر

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونسأله التّوفيق والسّداد في صغير الأمور وكبيرها وبعد:

فقد شاء الله أن تبنى مدينة الكوفة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب لتكون ثاني الأمصار المؤسسة في العراق بعد مدينة البصرة، وكان تأسيسها إحدى الضّرورات الحربية الّتي فرضتها دواعي الفتح الإسلامي للمشرق، فأصبحت قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق، ثمّ أصبحت عاصمة للدولة العربية الإسلامية في خلافة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، فازدهرت واستقطبت رجال العلم والأدب والفنون، ونزل بها بعض أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) فأخذوا يعلمون النّاس القرآن الكريم ويفسرونه، فازدهرت حياتها الفكرية وأخذت تتسع يوماً بعد يوم.

ولم يقتصر اهتمام أهل الكوفة على علوم الدّين والحديث بل امتد إلى النّحو واللغة والأدب والشّعر والعلوم العقلية وأقبل النّاس على حلقات الدّرس بحماس شديد، وقد اتخذ العبّاسيون الكوفة عاصمة مؤقتة لهم ثمّ نقلوها إلى بغداد، وأدى خروج مركز الحكم منها إلى انتقال مركز الإدارة والنّشاط الاقتصادي إلى العاصمة الجديدة وإهمال الكوفة وضعفت أجهزتها الإدارية فانتشرت الفوضى فيها وشهدت العديد من الحركات العلوية وهجمات القرامطة الّذين كانوا يستغلون ضعف الاهتمام العبّاسي بولاية الكوفة، وعلى الرّغم من انتقال العاصمة من الكوفة إلى بغداد وهجرة الكثير من علماء الكوفة إليها، فإنّ الحياة الفكرية في الكوفة كانت نشطة وخصبة إذ رفد الكوفيون التّراث العربي الإسلامي بالعديد من المؤلفات وفي مختلف حقول المعرفة.

ولم تكن الكوفة معزولة عن العالم الخارجي، بل كانت ذات علاقات ثقافية متبادلة مع أنحاء العالم الإسلامي المختلفة، فقد رحل الكوفيون إلى مختلف البلدان، وكانت لهم إسهاماتهم الواضحة في خدمة الحركة الفكرية العربية الإسلامية، وحظوا بثقة الخلفاء العبّاسيين الّذي عهدوا بمركز القضاء إلى العديد منهم، وفي المقابل كانت الكوفة فاتحة ذراعيها لاحتضان كلّ من يرومها لطلب العلم والدّرس على يد علمائها أو التّدريسيين فيها.

وتكمن أهمية اختياري لهذا الموضوع، في أنّ الدّراسات عن المدن العربية الإسلامية تخلو من هذا الموضوع، فهذه أوّل دراسة منهجية متخصصة عن الكوفة في العصور العبّاسية الأولى، فهي كونها تمثل مركزاً من مراكز الحضارة، جديرة بكلّ بحث يتعلق بها أو يكشف بعض جوانب حياتها، وقد جعلنا هذا البحث في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، إذ كان الفصل الأوّل مخصصاً لدراسة الحياة السّياسية في الكوفة «١٣٢- ٣٣٤هـ»، وجاء هذا الفصل على ستة مباحث، تناول الأوّل منها الدّور الّذي لعبته الكوفة في الدّعوة العبّاسية والثّقل الّذي شكلته في سبيل نجاحها وتناول المبحث الثّاني إعلان الخلافة العبّاسية في الكوفة وبيعة أوّل خليفة عبّاسي على أرضها، فيما كان المبحث الثّالث مخصصاً لدراسة قضية أبي سلمة الخلال وموقفه من الخلافة العبّاسية، وتناول المبحث الرّابع الكوفة في عهد الخليفة أبو جعفر المنصور «١٣٦- ١٥٨هـ»، وتناول المبحث الخامس الحركات العلوية الّتي شهدتها الكوفة خلال هذه الدّراسة فكانت خمس حركات في حين كان المبحث السّادس والأخير مخصصاً لمتابعة الهجمات الّتي تعرضت لها الكوفة من قبل القرامطة.

«ب»

وكان الفصل الثّاني مخصصاً لدراسة الحياة الفكرية في الكوفة «١٣٢- ٣٣٤هـ»، وجاء هذا الفصل على مبحثين تناول

الأوّل دراسة مراكز الحياة الفكرية في الكوفة، في حين تناول المبحث الثّاني دراسة العلوم وتطورها في مدينة الكوفة وكان الفصل الثّالث مخصصاً لدراسة التّلاقح الفكري بين الكوفة والعالم الإسلامي، وهذا الفصل جاء في ثلاثة مباحث تناول المبحث الأوّل التّلاقح الفكري بين الكوفة وبقية أجزاء العراق، وتناول المبحث الثّاني التّلاقح الفكري بين الكوفة والمدن العربية الإسلامية، وكان المبحث الثّالث مخصصاً للتلاقح الفكري بين الكوفة والمشرق الإسلامي، أمّا الخاتمة فقد خصصت لتسجيل أهم النّقاط الّتي خرجنا بها من بحثنا هذا.

أمّا الصّعوبات الّتي واجهت البحث فقد كانت كثيرة متعددة يقف في مقدمتها تشعب المصادر وتعددها تبعاً لتعدد المحاور الّتي تناولها البحث وموسوعية بعض العلماء الكوفيين، ومساهمتهم في أكثر من حقل من حقول العلم والمعرفة، فكان ذلك يتطلب جهداً كبيراً في سبيل تصنيفهم وتحديد الحقل الّذي اختص به، ومن الصّعوبات الأخرى الّتي واجهت البحث، هي متابعة أخبار العلماء الكوفيين الّذين رحلوا من الكوفة إلى البلدان الأخرى، فقد كان ذلك يتطلب مسحاً شاملاً للمصادر والمراجع الّتي اعتمدتها الدراسة فقد يذكر مصدر ما ترجمه لأحد علماء الكوفة وحقل المعرفة الّذي يبرز فيه ولا يذكر له رحلة في سبيل العلم، في حين يذكر مصدر آخر أنّه خرج إلى أماكن أخرى غير الكوفة يسميها، وكذا الحال ينطبق على علماء البلاد الأخرى ممن زاروا الكوفة، وكان علينا أن نتتبع أخبارهم ونجمعها من المصادر المتعددة لنخرج بنتيجة تعكس الاتصال والتّلاقح الفكري الّذي كان بين الكوفة وأنحاء العالم الإسلامي الأخرى.

وقد اعتمدت هذه الدّراسة على العديد من المصادر والمراجع الّتي أسهمت في رسم الصّورة الّتي هدف إليها البحث وهي دراسة حياة الكوفة السّياسية والفكرية واتصالها بالعالم الإسلامي، ويأتي في مقدمة المصادر التّاريخية الّتي أفادت البحث كتاب التّاريخ لخليفة بن خياط «ت: ٢٤٠هـ» الّذي يعد أقدم كتب الحوليات في تاريخنا الإسلامي، وابن خياط من الرّواة الثّقات واتصفت رواياته بالاختصار والدّقة والموضوعية، فهو يمدنا بمعلومات عن تأسيس الكوفة ومشاركة أهلها في الفتوحات العربية الإسلامية وتطرقه إلى بيعة الخليفة العبّاسي الأوّل في الكوفة.

ويأتي بعده كتاب تاريخ الرّسل والملوك للطبري «٣١٠هـ»، والكتاب هذا من المصادر المهمة الّتي اعتمدناها، إذ أنّه يعتبر من المصادر الأصلية في التّاريخ العربي الإسلامي حتّى نهاية عام «٣٠٢هـ»، مرتباً حسب الحوليات ومعتمداً على الرّواية لأنّ سرد الحوادث التّاريخية منقولة على شكل روايات وهو يصف الحدث بروايات متعددة منقولة من عدة أشخاص مما يدعو الباحث على عقد مقارنة للروايات وعليها ووصولاً إلى الحقيقة، فقد رسم لنا الطّبري صورة واضحة عن الدّور الّذي لعبته الكوفة في سبيل إنجاح الدّعوة العبّاسية وإعلان الخلافة العبّاسية بالكوفة واتخاذها عاصمة من قبل الخليفة الأوّل أبي العبّاس السّفاح ومن بعده أخوه أبو جعفر المنصور، ومدنا الطّبري بمعلومات واضحة عن حرص الخليفة أبو جعفر المنصور في المحافظة على الكوفة أثناء ثورتي محمّد النّفس الزّكية وأخيه إبراهيم ابني عبد الله بن المحض، كما مدنا الطّبري بمعلومات قيمة عن الثّورات الّتي قام بها العلويون في الكوفة، وكذلك متابعته للهجمات الّتي شنها القرامطة على مدينة الكوفة.

«ت»

ومن الكتب الأخرى الّتي خدمت البحث كتاب التّاريخ لليعقوبي «ت: ٢٨٤هـ»، واليعقوبي مؤرخ ثقة اتصفت أغلب رواياته بالصّدق والإيجاز رتبها حسب الخلفاء، وأمدنا اليعقوبي بمعلومات عن مشاركة الكوفة بالدّعوة العبّاسية، ومبايعة السّفاح بالكوفة، وبين لنا محاولة أبي سلمة في نقل الخلافة للعلويين، وأمدنا بأخبار مهمة عن الثّورات العلوية الّتي شهدتها الكوفة.

ويعد كتاب مروج الذّهب ومعادن الجوهر للمسعودي «ت: ٣٤٦هـ» من الكتب المهمة الأخرى الّتي اعتمدها البحث، والمسعودي مؤرخ يجيد عرض التّاريخ بأسلوب قصصي مشوق، يؤثر على القارئ ويجعله ينجذب إلى وجهة نظره ويعتمد في سرد التّاريخ على العرض الأدبيّ لا على الإسناد، وأمدنا المسعودي بمعلومات مهمة ومنها ما يتعلق بمحاولة أبي سلمة الخلال نقل الخلافة إلى العلويين، وكذلك أمدنا بأخبار عن ثورات العلويين، أمّا كتابه التّنبيه والإشراف فقد كان من الكتب المهمة الّتي اعتمدها البحث وخصوصاً في متابعة أخبار القرامطة ومهاجمتهم لمدينة الكوفة وقوافل الحج.

ويعد كتاب الكامل في التّاريخ لابن الأثير «٦٣٠هـ» من المصادر الأساسية الّتي رجعنا إليها، على الرّغم من أنّ أكثر معلوماته استقاها من الطّبري وابن الجوزي إلا أنّه يحافظ على أصول قسم من هذه الرّوايات، ويهذب بعضها، ويدمج بعضها الآخر، وقد أورد ابن الأثير في كتابه هذا معلومات قيمة عن الكوفة خلال مدة الدّراسة بدأ من الدّور الّذي لعبته الكوفة في الدّعوة العبّاسية، وإعلان الخلافة على أرضها وصولاً إلى إمدادنا بأخبار وافية عن الثّورات العلوية الّتي احتضنتها الكوفة، وكذلك تناول أخبار القرامطة وتعرضهم لمدينة الكوفة.

ومن الكتب الأخرى الّتي اعتمدها البحث كتاب البداية والنّهاية لابن كثير «ت: ٧٧٤هـ»، وقد اعتمد ابن كثير في كتابه

هذا على الطّبري مع بعض الإضافات القليلة وأنّه مرتب على السّنين وأهم ما يميزه أنّه حذف الأسانيد ولم يكرر ذكر الرّوايات، واكتفى بذكر رواية واحدة، وذكر كتابه بعض الأخبار عن موقف أبي سلمة من الخلافة العبّاسية، والحركات الّتي قام بها العلويون في الكوفة ومتابعة أخبار القرامطة.

مضافاً إلى ذلك إفادتي من الكتب التّاريخية الأخرى مثل كتاب الأخبار الطّوال للدنيوري «ت: ٢٨٢هـ»، وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي «ت: ٣٦٤هـ» وكتاب الوزراء والكتاب للجهشياري «٣٣١هـ»، وكتاب تاريخ الموصل للأزدي «ت: ٣٣٧هـ» وكتاب التّاريخ لابن الوردي «ت: ٧٤٩هـ»، وكتاب العبر لابن خلدون «ت: ٨٠٨هـ».

أمّا كتب الطّبقات والأنساب والتّراجم، فقد استفادت الدّراسة من مصادر عديدة ومتنوعة خدمت البحث عند التّطرق لدراسة حياة الكوفة الفكرية واتصالها بالعالم العربي والإسلامي، وفي مقدمة هذه الكتب يأتي كتاب الطّبقات لابن سعد «ت: ٢٣٠هـ»، ويتميز هذا المصدر بأنّه الأكثر قرباً للمدة موضوع الدّراسة فقد خصص ابن سعد الجزء السّادس من كتابه لعلماء الكوفة، وقد أمدنا بمعلومات مهمة عن طبيعة الحياة الفكرية في الكوفة وكذلك عن اتصالها بالعالم الخارجي ومن نزلها ومن خرج منها، وكتاب الطّبقات لابن خياط «ت: ٢٤٠هـ» الّذي يعد من المصادر المهمة الّتي اعتمد عليها البحث، وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري الّذي استفادت الدّراسة منه في الجانب السّياسي، وهذا الكتاب يتضمن معلومات مهمة عن الكوفة خلال فترة الدّراسة هذه، وهو تاريخ عام رتبه مؤلفه على طريقة الأنساب، حيث ذكر لنا الأسرة العبّاسية وأورد لنا سيرة رجالها، ويعد من أهم المصادر الّتي تبحث في المدة الموضوعة البحث، لأنّه ينقل من رواة مشهورين وثقات ومنهم المدائني، والهيثم بن عدي، وهشام بن الكلبي والواقدي، فقدم لنا معلومات مهمة عن كيفية وصول أعيان البيت العبّاسي إلى الكوفة وإخفاء خبر وصولهم من قبل أبي سلمة، ومحاولته نقل الأمر للعلويين.

ومن الكتب الأخرى الّتي خدمت البحث كتاب مقاتل الطّالبيين لأبي فرج الأصفهاني «ت: ٣٥٦هـ» فقد استفاد البحث منه كثيراً في مجال دراسة الحركات العلوية الّتي احتضنتها الكوفة ومشاركة الكوفيين بها.

ويعد كتاب الفهرست لابن النّديم «ت: ٣٨٠هـ» من الكتب المهمة الّتي لا يستغني عنها البحث، إذ تناول فيه مؤلفه أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتواريخ مواليدهم ووفياتهم، وقد أفادت الدّراسة منه كثيراً في الفصل الثّاني الّذي كان مخصصاً لدراسة الحياة الفكرية في الكوفة، إذ ذكر لنا الكثير من نتاج الكوفيين الفكري خلال مدة الدّراسة.

ومن المصادر الّتي أمدت البحث بمعلومات قيمة وكان لها الأثر الكبير في رسم صورة واضحة لحياة الكوفة الفكرية، كتاب أنباه الرواة على أنباه النّحاة للقفطي «ت: ٦٢٤هـ» إذ قد لنا القفطي في كتابه هذا عرضاً شاملاً لعلماء الكوفة اللغويين والنّحويين وتضمن كذلك تراجم كثيرة للقراء والمحدثين والفقهاء.

ومن الكتب الأخرى الّتي أفادت البحث كتاب الأنساب للسمعاني «ت: ٥٦٢هـ» الّذي احتوى على معلومات مهمة استفاد منها البحث في أحداث الفصل الثّالث الّذي كان مخصصاً للتلاقح الفكري بين الكوفة والعالم الإسلامي، إذ تضمن تراجم لكثير من العلماء الّذين زاروا الكوفة أو الكوفيين الّذين خرجوا من الكوفة إلى أنحاء العالم الإسلامي الأخرى، وكذلك كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي «٤٦٧هـ».

وكذا الحال ينطبق على كتاب اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير «ت: ٦٣٠هـ» وكتاب تهذيب الأسماء واللغات للنووي «ت: ٧٧٦هـ».

وكان لكتب العلامة الذّهبي «ت: ٧٤٦هـ» دور بارز ومؤثر في إخراج الدراسة بصورتها النّهائية، فقد نهل الباحث من كتبه الكثيرة منها كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، وسير أعلام النّبلاء، وتذكرة الحفاظ وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ومعرفة القراء الكبار، والمشتبه، والّتي أمدت البحث بمعلومات كثيرة استفاد منها عند دراسته لحياة الكوفة الفكرية واتصالها بالعالم الخارجي فضلاً عن العلامة السّيوطي «ت: ٩١١هـ» الّذي كان حاضراً بمؤلفاته وأمد البحث بمعلومات قيمة عن علماء الكوفة ومن زارها من علماء البلاد الأخرى، فقد اعتمد البحث على كتاب بغية الوعاة، وكتاب طبقات الحفاظ وكتاب طبقات المفسرين.

واحتلت الكتب الأدبية مكاناً بارزاً في قائمة الكتب الّتي أفادت الدّراسة ومنها كتاب المعارف لابن قتيبة «ت: ٢٧٦هـ» وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه «ت: ٣٢٧هـ» وكتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني «ت: ٣٥٦هـ» الّذي أمدنا بمعلومات قيمة عن شعراء الكوفة خلال هذه الفترة، وكذلك كتاب مجالس العلماء للزجاجي «ت: ٣٦٨هـ»، وكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي «ت: ٦٢٦هـ».

«ج»

واعتمد البحث عدداً من كتب البلدان والجغرافية، ومنها كتاب فتوح البلدان للبلاذري، الّذي قدم لنا معلومات عن مشاركة الكوفيين في الفتوحات العربية الإسلامية، وتطرق إلى

بناء أبي العبّاس السّفاح لمدينة الهاشمية، وكذلك اعتمد البحث على كتاب البلدان لليعقوبي «ت: ٢٨٤هـ» وكتاب المسالك والممالك للاصطخري، وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي «٦٢٦هـ» والّذي كان حاضراً على امتداد صفحات الرّسالة وأمدنا بمعلومات قيمة عن المدن الّتي كانت بحاجة إلى تعريف.

ومن المراجع الحديثة المهمة الّتي أفادت البحث كتاب مدرسة الكوفة النّحوية لمهدي المخزومي، وكتاب حياة الشّعر في الكوفة ليوسف خليف، وكتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين، وكتاب تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ومن الرّسائل الجامعية الّتي أفادت البحث كثيراً وخصوصاً في الفصل الثّاني الّذي كان مكرساً لدراسة الحياة الفكرية في الكوفة، أطروحة الدّكتورة سهيلة مزبان حسن عن الحركة الفكرية في العراق في العصر العبّاسي الأوّل والّتي أنارت الطّريق للباحث الّذي أخذ منها جوانب كثيرة تخص بحثه.

* * *

الفصل الأوّل

الحياة السّياسية في الكوفة «من ١٣٢م- إلى ٣٣٤هـ»

مقدمة

دأبت الكوفة ومنذ تأسيسها في سنة «١٧هـ» على المشاركة الفعالة في أحداث التّاريخ العربي الإسلامي، وفي المدة الموضوعة البحث كان للكوفيين الفضل الكبير في إنهاء الحكم الأموي والمساهمة المؤثرة في قيام الدّولة الجديدة، وذلك من خلال الجهود الّتي بذلوها في سبيل تحقيق هذا الهدف، فقد أصبحت الكوفة حلقة الوصل بين مركز الإمام في الحميمة وبين أرض الثّورة في خراسان[١]، ومن ثمّ توجت تلك المجهودات بإعلان الخلافة العبّاسية على أرض الكوفة وبيعة أوّل خليفة عبّاسي في مسجدها الجامع، واتخاذها من جديد عاصمة الدّولة العربية الإسلامية في فترة خلافة أبي العبّاس السّفاح وجزءاً من خلافة أبي جعفر المنصور، الّذي وجد صعوبة العيش فيها لميول أهلها العلوية، فأخذ يبحث عن عاصمة جديدة ولكن دون إهمال الكوفة، فقد كان هناك من ينقل له أخبارها أوّلاً بأوّل[٢]، وأخيراً وقع اختياره على بغداد، ولكن الكوفة تتدخل من جديد لتأجيل حلمه، إذ أخذ يحث الخطى بالإسراع نحوها ومنع أهلها من مناصرة ثورتي محمّد النّفس الزّكية، وأخيه إبراهيم ابني عبد الله المحض، ففرض على الكوفة وأهلها إجراءات أمنية مشددة حالت بعض الشّيء في الحد من متطلعات الكوفيين، وشهدت الكوفة خلال هذه الفترة عدداً من الحركات العلوية، بعد إحساس العلويين بالغبن وانفراد العبّاسيين بالدّولة الّتي قامت على أكتافهم جنباً إلى جنب مع العبّاسيين، ولكن كان الفشل مصير جميع هذه الحركات بسبب سوء التّنظيم والقسوة الّتي اتبعتها الدّولة في إخماد هذه الحركات كما تعرضت الكوفة خلال مدة الدّراسة هذه إلى هجمات قاسية ووحشية قام بها أناس يعرفون بالقرامطة استباحوا خلالها المدينة أياماً عديدة وهتكوا الحرمات واعترضوا قوافل الحجيج.

المبحث الأوّل

دور الكوفة في الدّعوة العبّاسية

تكاد تتفق أغلب المصادر العربية، على أنّ تأسيس مدينة الكوفة كان عام «١٧هـ»[٣]، فبعد أن من الله سبحانه وتعالى بالنّصر المبين للجيوش العربية الإسلامية على القوات الفارسية في معركة القادسية، تملكت العرب الرّغبة الأكيدة والصّادقة في تحرير أرض العراق من رجس الاحتلال الفارسي، فأخذوا يتابعون فلول الفرس المنهزمة إلى المدائن، فتمكنوا من تحريرها، بعد أن حققوا النّصر الكبير في معركة جلولاء شمالي شرق المدائن، وبذلك تسنى للعرب المسلمين أن يطهروا أرض العراق[٤].

لذا كتب القائد العربي سعد بن أبي وقاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب بما فتح الله على المسلمين، فكتب إليه الخليفة «أن قف ولا تطلبوا غير ذلك فكتب إليه سعد أيضاً: إنما هي سرية أدركناها والأرض بين أيدينا، فكتب إليه عمر: أن قف مكانك ولا تتبعهم، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومنزل، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً»[٥].

---

(١) شلبي، أحمد، موسوعة التّاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط٥ القاهرة ١٩٧٤، ٣٠/٣.

(٢) انظر: الطّبري: أبو جعفر محمّد بن جرير «ت: ٣١٠هـ»، تاريخ الرّسل والملوك، ط٢، ١٩٧٦م، ٦٣١/٧.

(٣) ابن خياط، خليفة «ت: ٢٤٠هـ»، تاريخ، تحقيق أكرم العمري، ط١ النّجف ١٩٦٧، ١٦/١، ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم «ت: ٢٧٦هـ»، المعارف، حققه وقدم له ثروت عكاشة، ط٢ مصر ١٩٦٩م، ص٥٦٥، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب «ت: ٢٨٤هـ»، تاريخ اليعقوبي، ط النّجف ١٣٥٨هـ ١٢٧/٢، الطّبري، تاريخ، ٤٠/٤.

(٤) ابن خياط، تاريخ، ١٧/١.

(٥) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر «ت: ٢٨٢هـ»، فتوح البلدان، ط مصر ١٣١٩هـ، ص٢٧٥، الطّبري، تاريخ، ٥٧٩/٣.

ويبدو من النّص المتقدم، أنّ الأولوية في تفكير الخليفة عمر كانت تنصب على تأمين استقرار الحكم العربي الإسلامي، في المناطق المفتوحة واتخاذها قاعدة انطلاق نحو أهداف أخرى أكثر أهمية في المرحلة المقبلة، ولتحقيق هذا الغرض كان لا بد من اتخاذ قواعد عسكرية ثابتة تكون نقطة ارتكاز وانطلاق في آن واحد للجيش العربي الإسلامي، أي «تجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الأعداء ثمّ تؤوب إليه عندما تحقق الغرض من انطلاقها»[1]، ولأجل ذلك وقع الاختيار على منطقة الكوفة لتمصيرها واتخاذها مقراً ومستقراً للمقاتل العربي، فالسّمة العسكرية هي السّمة البارزة لاختيار موضع الكوفة، ولما نزلها سعد بن أبي وقاص كتب إلى الخليفة عمر «إنّي قد نزلت الكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات بريا وبحرياً ينبت الحلي والنّص، وخيرت المسلمين بالمدائن فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمسلحة»[2]، وبذلك أصبحت مدينة الكوفة داراً لهجرتهم، ومستقراً لإقامتهم ومعسكراً لحمايتهم ويسيطرون منها على أطراف العراق، وفارس وتحمي بها ثغور البلاد وتكون أيضاً مركزاً لتموين ساحات القتال بالجند والمؤن[3].

ولذا كان تمصير الكوفة مبنياً على عوامل جغرافية وعسكرية، مضافاً إلى ذلك العامل الفكري الّذي أهمله الباحثون لأنّ الكوفة هي الوريث التّاريخي والحضاري والثّقافي للحيرة الّتي تعد مدرستها عربية النّشأة، بعيدة عن الأفكار والتّيارات الثّقافية الأجنبية، وقد قامت القبائل العربية النّازحة من منطقة الجزيرة العربية إلى هذه المدينة بمجهودات الحضارة، والفكر[4]، وفي ضوء ما تقدم يمكننا القول إنّ تأسيس الكوفة واختيار موضعها كان خاضعاً لمقاييس معينة كانت حاضرة في تفكير الخليفة عمر والقائد سعد بن أبي وقاص، وهذه المقاييس تستند إلى العوامل التّاريخية والجغرافية والاقتصادية والعسكرية والسّياسية والفكرية وتضافرها في سبيل إنجاح مهمة المدينة الجديدة.

ومنذ تأسيسها فإنّ الكوفة وسكانها لعبوا دوراً كبيراً وبارزاً في عمليات الفتح الإسلامي والمساهمة في توسيع رقعة

(١) العميد، طاهر مظفر، تخطيط المدن الإسلامية، ط بغداد ١٩٨٦م، ص٢٢٥.

(٢) الطّبري، تاريخ، ٤٢/٤، ابن الأثير، عز الدّين أبو الحسن علي «ت: ٦٣٠هـ»، الكامل في التّاريخ، راجعه وصححه محمّد يوسف الدّقاق، ط ١ بيروت ١٩٨٧، ص٣٧٣/٢.

(٣) الزّبيدي، محمّد حسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأوّل الهجري، ط القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٥.

(٤) الحكيم، حسن عيسى، تمصير الكوفة، جريدة الثّورة، كانون الأوّل ١٩٨٨، العدد ٦٧٦٧، ص٣.

الدّول العربية الإسلامية[5]، حتّى أنّها نالت شهادة تقدير من الخليفة عمر بن الخطاب الّذي خاطب أهلها قائلاً: «يا أهل الكوفة أنتم رأس العرب وجمجمتها وسهمي الّذي أرمي به إن أتاني شيء من هنا وها هنا»[6].

واستمرت مشاركة الكوفة في الحياة السّياسية للدولة العربية الإسلامية، ولعل أبرز حدث في تاريخها وأكثرها بريقاً هو تصدرها لقيادة العالم العربي والإسلامي، وذلك بعد أن اتخذها الإمام علي(عليه السلام) قاعدة لحكمه وحاضره لخلافته[7].

وبعد مقتل الإمام علي(عليه السلام) سنة «٤٠هـ»، تولى الأمويون الحكم عقب تنازل الإمام الحسن(عليه السلام)[8]، انتقلت العاصمة من الكوفة إلى الشّام، وأصبحت الكوفة وأهلها من أبرز معارضي الحكم الأموي، خصوصاً بعد واقعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين(عليه السلام) الّتي أذهلت أهل الكوفة وجعلتهم يشعرون بأنّهم مشاركون في قتل الحسين بعدما طلب نجدتهم ولكنهم خذلوه، إذ كانت تلك الفاجعة الحافز الأكبر للكوفيين في معارضة بني أمية، ولأجل ذلك شهدت الكوفة حركتي التّوابين[9]، والمختار[10]، اللتين كانت من النّتائج السّريعة لمقتل الإمام

(٥) انظر أخبار مشاركة الكوفيين في الفتوحات في: ابن خياط، تاريخ، ١٣٠/١، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٠، ١٦٦، ١٧٠، البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٠٩، ٣١١، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٥، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٢.

(٦) ابن سعد، محمّد بن سعد البصري «ت: ٢٣٠هـ»، الطّبقات الكبرى، ط بيروت ١٩٥٧، ٧/٦.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ٢٤٢/٣، السّيوطي، جلال الدّين عبد الرّحمن «ت: ٩١١هـ»، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمّد محي الدّين، ط٤ القاهرة ١٩٦٩م، ص١٧٤.

(٨) للاطلاع على الأسباب الّتي حملت الإمام الحسن على التّنازل انظر: المقدسي، مطهر بن ظاهر «ت: ٣٥٥هـ»، البدء والتّاريخ ط باريس ١٩١٦، ٢٣٥/٥- ٢٣٨، أبي الفداء، عماد الدّين إسماعيل «ت: ٧٣٢هـ»، المختصر في أخبار البشر، ط١ مصر، د. ت ١٨٢/١- ١٨٣، آل ياسين، راضي، صلح الحسن، ط بغداد ١٩٦٥م، ص٢٤٨ فما بعد، الشّبيبي، كامل مصطفى، الصّلة بين التّصوّف والتّشيع، ط بغداد ١٩٦٣م، ٨٥/١.

(٩) قامت بالكوفة آخر سنة «٦١هـ» وقد رأسها خمسة أشخاص بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي، رأوا أنّهم أخطؤوا بتركهم نصرة الحسين، فحاولوا مطاردة قتلته والأخذ بثأره، ولكن عبيد الله بن زياد استطاع أن يرسل إليهم الحصين بن نمير الّذي انتصر عليهم في عين الوردة وقتل منهم الكثير وكان ذلك سنة «٦٥هـ»، انظر ابن خياط، تاريخ، ٢٥٨/١، البلاذري، أحمد بن عيسى «ت: ٢٨٢هـ»، كتاب جمل من أنساب الأشراف، حققه وقدم له د. سهيل زكار، د. رياض زركلي، ط بيروت ١٩٩٦م، ٣٦٣/٦- ٣٧٤، دكسن، عبد الأمير، من حركات المعارضة الدّينية السّياسية في العصر الأموي، المجلة التّاريخية ١٩٧٢، العدد٢، ص١٤١- ١٤٥.

(١٠) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثّقفي، غلب على الكوفة في زمن مصعب بن الزّبير، وتتبع قتلة الحسين بن علي، قاتله مصعب بن الزّبير في الكوفة وانتصر عليه سنة «٦٧هـ»، انظر ابن خياط، تاريخ، ٣٦٠/١، ابن قتيبة، المعارف، ٤٠٠- ١٤٠١، البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٧٥/٦- ٤٥٥، دكسن، عبد الأمير، الخلافة الأموية «٦٥- ٨٦هـ»، ط١ بيروت ١٩٧٣م، ص٥٣- ١١٦.

الحسين(عليه السلام) والّذي يمكن اعتباره الزّيت الّذي زاد النّار اشتعالاً وألهب حماس الكوفيين في معارضة الأمويين، ويرى بعض الباحثين أنّ مقتل الإمام الحسين(عليه السلام) كان له أثر عميق في تطور التّشيع ونحوه بعامة، وفي تكتل الشّيعة العلوية بخاصة[1].

وتمضي الكوفة قدماً في سياسة المعارضة للحكم الأموي، فكانت ثورة زيد بن علي سنة «١٢٢هـ»[2]، وثورة عبد الله بن معاوية سنة «١٢٧هـ»[3]، وعلى الرّغم من فشل هذه الثّورات في تحقيق أهدافها، بسبب موقف الأمويين الحازم منها..... إلا أنّها كشفت وبوضوح عن تعمق العقيدة العلوية لدى الكوفيين واستعدادهم للمشاركة والمساهمة الفعالة في أي عمل منظم من شانه أن يفضي في النّهاية إلى التّخلص من حكم الأمويين، وهذا ما حصل فعلاً كما سنرى عندما أتيحت الفرصة للكوفة في المساهمة بالدّعوة العبّاسية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإنّ سياسة عمال الأمويين على الكوفة كان لها دور كبير في ترسيخ الاعتقاد في نفوس الكوفيين بضرورة مواصلة النّضال من أجل التّخلص من نظام حكمهم، فقد اتبع هؤلاء العمال سياسة قاسية وشديدة في تعاملهم مع أهل الكوفة، فها هو زياد بن أبيه وبعد أوّل دخول له إلى الكوفة كوالي عليها، يعمل على قطع أيدي ثلاثين رجلاً أو ثمانين لأنّهم حصبوه على المنبر[4]، ولعل أخطر عمل قام به زياد بن أبيه خلال ولايته على الكوفة هو مساهمته -ومن دون قصد طبعاً- في التّحضير المبكر لنهاية الأمويين وزوال دولتهم، فقد عمل زياد على إنزال خمسين ألفاً من الكوفيين الشّيعة وأسرهم في خراسان[5] -سعياً منه في إبعاد العناصر الّتي تعكر صفو الأمن في الكوفة- فلعب هؤلاء الكوفيون دوراً كبيراً في تثبيت أسس التّشيع في خراسان والإعداد بعد ذلك لنجاح الدّعوة العبّاسية الّتي اعتمدت أكثر ما اعتمدت على الشّيعة من أهل خراسان[6].

وكذا الحال ينطبق على الحجاج بن يوسف الثّقفي، الّذي عاشت الكوفة خلال فترة ولايته أوضاعاً قلقة مضطربة وجلة، فقد كان الحجاج التّلميذ المطيع في تنفيذ تعاليم سيّده عبد الملك بن مروان في كيفية التّعامل مع العراقيين، إذ كتب له عبد الملك طالباً منه أن يطأ أهل الكوفة وطأة يتضاءل منها أهل البصرة[7]، فجعل السّيف يقول كلمته، حتّى أنّ بعض المؤرخين يذكر أنّ عدد من قتلة الحجاج صبراً بلغ مئة ألف وعشرين ألفاً[8].

وعلى الرّغم من هذه المبالغة الواضحة في عدد الأرقام، فإنّ واقع الحال يدل على أنّ الحجاج كان يملك الجرأة الكبيرة على سفك الدّماء، ويمكن أن نلمس الدّليل على ذلك من خلال مخاطبته بعض شيوخ الكوفة قائلاً: «فإنّي والله ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجرأ على دم مني، ولقد ركبت أمور كان هابها النّاس فافرج لي بها»[9].

وبعد هذه المقدمة الموجزة لحالة الكوفة السّياسية قبل قيام الدّعوة العبّاسية نستطيع القول أنّ هذه الظّروف الّتي مرت بها الكوفة خلال فترة الحكم الأموي عملت عملها في تهيئة الكوفة لتكون أرضاً خصبة ومكاناً صالحاً لاحتضان أي عمل منظم من شانه أن يفضي إلى القضاء على الحكم الأموي الّذي عانى منه الكوفيون كثيراً، لكن مع ذلك، ومع هذه المميزات الّتي كانت تتمتع بها الكوفة، نجد أنّ القائمين على أمر الدّعوة العبّاسية كان لهم رأي آخر في الدّور الّذي ممكن أن تلعبه الكوفة، فوقع اختيارهم على خراسان لتكون مسرح العمليات -وفق المصطلح السّائد حالياً إن صح التّعبير- والمكان الّذي تنطلق منه الثّورة الجديدة، ولم يكن هذا الاختيار اعتباطياً أو ناشئاً عن فراغ، وإنما جاء بعد دراسة مستفيضة لحالة الأمصار الإسلامية، وهنا لا بد من إعطاء توضيح بسيط عن بداية أمر الدّعوة العبّاسية حتّى تتمكن من معرفة الدّور الّذي

(١) الخربوطلي، علي حسين، غروب الخلافة الإسلامية، ط القاهرة، د. ت، ص٧٥، الفياض، عبد الله، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشّيعة، ط بغداد ١٩٧٠م، ص٥٢، حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السّياسي والدّيني والثّقافي والاجتماعي، ط٧ القاهرة ١٩٦٤م، ٢/٢.

(٢) هو زيد بن علي بن الحسين خرج بالكوفة في خلافة هشام بن عبد الملك سنة «١٢٢هـ»، فقتله يوسف بن عمر وصلبه بسوق الكناسة، انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص٣٦٥، مؤلف مجهول، العيون والحدائق في إخبار الحقائق، ط بغداد، د. ت، ٩٢/٣- ١٠٠، الطّبري، تاريخ، ١٦٠/٧- ١٧٣.

(٣) هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله جعفر بن أبي طالب، خرج في الكوفة سنة «١٢٧هـ» وبعد فشل ثورته غادر الكوفة إلى الجبل، ثمّ انتهى به المطاف إلى خراسان وهناك قتله أبو مسلم الخراساني في سنة «١٣١هـ»، الطّبري، تاريخ، ٣٠٢/٧- ٣٠٩، ابن الأثير، الكامل، ٥/٥- ٧.

(٤) الطّبري، تاريخ، ٢٣٥/٥.

(٥) المصدر نفسه، ٢٨٦/٥، بروكلمان، كارل، تاريخ الشّعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، ومنير بعلبكي، ط٦ بيروت ١٩٧٤م، ص١٢٣.

(٦) انظر: فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدّولة العربية من ظهور الإسلام حتّى نهاية الدّولة الإسلامية، نقله عن الألمانية وعلق عليه د. محمّد عبد الهادي أبو ريده، راجع التّرجمة د. حسين مؤنس، ط القاهرة ١٩٦٨م، ص٤٧٣.

(٧) اليعقوبي، تاريخ، ١٨/٣.

(٨) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين «ت: ٣٤٦هـ» مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تحقيق وتعليق الشّيخ قاسم الشّماعي، ط١ بيروت ١٩٨٩م، ١٥٦/٣، ابن عساكر، علي بن الحسين الدّمشقي «ت: ٥٧١هـ»، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه الشّيخ عبد القادر بدران، ط بيروت ١٩٧٩م، ٨٣/٤.

(٩) ابن سعد، الطّبقات، ٩٩/٦.

لعبته الكوفة ومساهمتها في إنجاحها، فأوّل من وصلت إلينا أخباره أنّه سعى في مناوأة الأمويين وطلب الحكم هو محمّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب، الّذي وجه الدّعاة في الآفاق[1]، ويعد أوّل منظم للدعوة العبّاسية السّرية[2]، كان هذا يسكن الحميمة[3]، وكانت تربطه صلة وثيقة بابني هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفية إمام فرقة الهاشمية[4]، ويقال أنّ أبا هاشم بعد زيارته لسليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي، تمرض وهو بطريق العودة فأحس بدنو أجله، فأمر أصحابه أن يعرجوا به إلى الحميمة، وهناك أوصى بالإمامة من بعده إلى محمّد بن علي وأطلعه على أسرار الدّعوة وعرف بينه وبين دعاتها[5]، ويذهب الدّكتور حسين أمين إلى التّشكيك في مدى مصداقية هذه الرّواية قائلاً: «ولا يزال الغموض يكتنف هذه الرّواية الّتي فيها من عوامل الضّعف ما يحملنا على التّحفظ وعدم الجزم بصحتها»[6]، وسواء كان هذا التّنازل حقيقة أم ادعاء، فإنّ محمّد بن علي العبّاسي عمد بعد ترأسه للدعوة إلى دراسة حالة الأمصار الإسلامية للاهتداء إلى المكان المناسب لاحتضان الدّعوة، وخرج بنتيجة أنّ خراسان هي المكان الأفضل والأصلح لهذه المهمة وجاءت نتائج دراسته كالآتي: «أمّا الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي، وأمّا البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأمّا الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النّصارى، وأهل الشّام فليس إلا آل سفيان وطاعة بني مروان، عداوة لنا راسخة وجهلاً متراكماً، وأمّا أهل مكة والمدينة فقد غلب عليها أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإنّ هناك العدد الكثير والجلد الظّاهر.. وبعد فكأني أتفاءل إلى المشرق..»[7].

ومن خلال النّص المتقدم -بخصوص الكوفة- يتضح أنّ محمّد بن علي لم يكن مطمئناً للكوفة بسبب ميولها العلوية، لكنه رسم لها دوراً آخر لا يقل أهمية عن دور خراسان، وذلك يجعل الكوفة نقطة للاتصال بين الحميمة مكان التّدبير والتّنظيم وبين خراسان مركز الدّعوة فتكون الكوفة مكان اللقاء بين الّذين يحملون الأوامر والتّوجيهات من الحميمة، مع الدّعاة الّذين عادوا من خراسان لينقلوا إلى القادة نتائج كفاحهم ويتلقون التّعليمات الجديدة[8]، ورأى محمّد بن علي العبّاسي أنّه لا بد أن يكون هناك إعلان مسبق ودعاية مكثفة من أجل تهيئة النّفوس والأفكار لتقبل التّغيير الجديد والمساهمة به بصورة فعالة[9]، لذا فقد دأب الدّعاة العبّاسيين على الدّعوة للرضا من آل محمّد في المرحلة السّرية من دعوتهم، وأسرّوا شخصية الإمام، وبالغوا في كتمانها مبالغة شديدة، فلم يكن يعرف اسم الإمام ونسبه إلا كبير داعتهم ونقباؤهم وقليل من دعاتهم، فكانت البيعة تؤخذ لرجل مجهول من أهل البيت[10].

ويمضي محمّد بن علي العباسي في تطبيق ما خطط له من أفكار على أرض الواقع ففي سنة «١٠٠هـ» أرسل ميسرة العبدي -مولى أبيه- إلى الكوفة ليتولى شؤون الدّعوة فيها، وأرسل أبا عكرمة السّرّاج ومحمّد بن خنيس وحبان العطار إلى خراسان، وحدد لهؤلاء واجبات هي القيام بأمر الدّعوة هناك، ويكون واجب ميسرة إرسال ما يرد من كتب ومعلومات إلى الإمام محمّد بن علي حيث يوجد[11]، وبذلك أصبحت الكوفة مركز الحركة العباسية ومستقراً لممثلي الإمام المستور، ومنها كانت تدار شؤون الدّعوة في خراسان[12].

وفي سنة «١٠٥هـ» قدم الكوفة بكير بن ماهان الّذي كان يعمل ترجماناً لوالي السّند الأموي، فلقى دعاة العباسيين بها،

(١) الدّينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود «ت: ٢٨٢هـ»، الأخبار الطّوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدّين الشّيال، ط القاهرة ١٩٦٠م، ص٣٣٢- ٣٣٣، ابن الأثير، الكامل، ٣٢٢/٤.

(٢) عمر، فاروق، طبيعة الدّعوة العبّاسية، ط بغداد، د. ت، ص١٥٣.

(٣) الحميمة: بلد من أرض الشّراه من أعمال عمان في أطراف الشّام، كان منزل بني العبّاس، ياقوت، شهاب الدّين أبي عبد الله الحموي «ت: ٦٢٦هـ»، معجم البلدان، ط بيروت ١٩٧٧م، ٣٠٧/٢.

(٤) الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل «ت: ٣٣٠هـ»، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمّد محي الدين عبد الحميد، ط٢ القاهرة ١٩٨٥، ٩٢/١- ٩٣، الشهرستاني، محمّد عبد الكريم «ت: ٥٤٨هـ»، الملل والنّحل، تحقيق: محمّد سيد كيلاني، ط٢ بيروت ١٩٧٥، ١٥٠/١.

(٥) ابن قتيبة، أبي محمّد عبد الله بن مسلم «ت: ٢٧٦هـ»، الإمامة والسّياسة، ط٣ مصر ١٩٦٣، ١٣١/٢، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين «٣٤٦هـ»، التّنبيه والإشراف، عني بتصحيحه ومراجعة عبد الله إسماعيل الصّاوي، ط القاهرة ١٩٣٨، ص٢٩٢، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٨٠/٣- ١٨١، وانظر: بيضون، إبراهيم، وسهيل زكار، تاريخ العرب السّياسي من فجر الإسلام حتّى سقوط بغداد، ط١ بيروت ١٩٧٤، ص٢٠٦.

(٦) الدّعوة العباسية، مجلة المؤرخ العربي، العدد ١٠، ١٩٧٩م، ص١٠.

(٧) ابن قتيبة، أبي عبد الله بن مسلم «ت: ٢٧٦هـ»، عيون الأخبار، ط القاهرة د. ت، ٢٠٤/١- ٢٠٥، انظر: مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار مطلبي، ط بيروت ١٩٧١م، ص٢٠٦- ٢٠٧، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر «ت: ٢٢٥هـ»، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، ط القاهرة ١٩٦٤م، ص١٦- ١٧.

(٨) شلبي، موسوعة التّاريخ الإسلامي، ٣/٣.

(٩) حسن، تاريخ الإسلام، ١٢/٢.

(١٠) فلهوزن، تاريخ الدّولة العربية، ص٤٨٩، وانظر: عطون، حسين، الدّعوة العباسية، «مبادئ وأساليب»، ط بيروت، د. ت، ص٩٥- ٩٦.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٥٦٢/٦٨، انظر: الدينوري، الأخبار الطّوال، ص٣٣٢- ٣٣٣.

(١٢) فلهوزن، تاريخ الدّولة العربية، ص٤٨٧.

فاطلعوه على أمر الدّعوة، فقرر الانضمام لهم، وكان داهية واسع الثّراء، فتبرع للدعوة بما كان معه أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب كان قد قدم بها من السّند، وبعد موت ميسرة العبدي يعهد إليه محمّد بن علي العباسي بالقيام مقامه على شؤون الدّعوة في الكوفة[1]، فأصبح بكير بن ماهان، قائد الدّعوة الجديد في هذه المنطقة وحلقة الاتصال بين زعماء الحميمة ونشاط خراسان[2].

وانطلاقاً من موقعه ككبير للدعاة أخذ بكير بن ماهان يوجه مجموعات من أنصار الدّعوة إلى خراسان ليساهموا في عملية نشرها وكسب الأتباع[3]، وفي تلك الأثناء يموت محمّد بن علي العباسي، فيولّى أمر الدّعوة من بعده ابنه إبراهيم بن محمّد، فكان أوّل شيء فعله هو إرسال بكير بن ماهان في سنة «١٢٦هـ» إلى خراسان وبعث معه «السّيرة والوصية» وهناك التقى بالنّقباء والدّعاة فنعى إليهم الإمام محمّد بن علي، ودعاهم إلى بيعة إبراهيم، ودفع إليهم كتابه، فأجابوه على ذلك ودفعوا له ما اجتمع عندهم من نفقات شيعتهم فقدم بها على إبراهيم الإمام[4].

وفي سنة «١٢٧هـ» يبدأ دور جديد في مجال الدّعوة العباسية بالكوفة، وما ذاك إلا موت بكير بن ماهان وتعيين أبي سلمة الخلال رئيساً للدعوة العباسية في الكوفة، فبعد أن أحس بدنو أجله، كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم الإمام «إني في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدّنيا، وإنّه قد استخلف أبا سلمة وهو رضا للأمر»[5] فوافق إبراهيم على تعيين أبو سلمة وكتب إليه يأمره بالقيام بأمر أصحابه.

وهنا يبدأ أبو سلمة في ممارسة دوره كحلقة وصل بين الحميمة وخراسان، فيشد الرّحال إلى خراسان، وهنا يبدأ يتصل بإتباع الدّعوة ويعرفهم بمهمته، فيدفعون إليه ما جمعوه من تبرعات، ويتبرعون أيضاً بخمس أموالهم[6]، ونتيجة للجهود الّتي بذلها الدّعاة العباسيون في الكوفة، أصبح هناك قاعدة كبيرة للدعوة، وخرج الكثير من الكوفيين قاصدين خراسان، وتعرض قسم منهم إلى القتل من قبل والي خراسان الأموي[7]، كما خرج بعض الكوفيين إلى خراسان من أجل تعريف النّاس هناك بمبادئ الدّعوة الجديدة ودعوتهم إلى الانضمام إليها[8]، وفي المقابل كانت الكوفة فاتحة ذراعيها لاستقبال الأنصار القادمين من خراسان للالتقاء بالقائم بأمر الدّعوة، كما كانت تمر بها طوائف أخرى في طريقها للقاء أمام الدّعوة في مكة أو الحميمة، ويذكر الطّبري في حوادث سنة «١٢٤هـ» أنّ جماعة من شيعة بني العباس قدموا الكوفة من خراسان يريدون مكة، واتصلوا بأنصار الدّعوة فيها، وكانوا يجتمعون في دار بها[9].

وفي سنة «١٢٩هـ» وجه إبراهيم الإمام أبا مسلم[10] إلى خراسان، وكتب إلى أصحابه: «أنّه قد أمرته بأمري فاسمعوا منه وأقبلوا قوله فإنّي قد أمّرته على خراسان وعلى ما غلب عليه»[11] ثم يوجه إبراهيم الإمام أوامره إلى أبي مسلم بإظهار الدّعوة والتّسويد وما إن جاء يوم الخميس «٢٥ رمضان سنة ١٢٩هـ» حتّى ارتفعت في سماء مرو[12] «الظّل والسّحاب»[13] ولبس أبو مسلم وأصحابه السّواد[14] وأوقدوا النّيران، وهي

(١) الدينوري، الأخبار الطّوال، ص٣٣٣، الطّبري، ٢٥/٧- ٢٦، ابن الأثير، الكامل، ٣٧٠/٤.

(٢) شلبي، موسوعة التّاريخ الإسلامي، ٣٦/٣.

(٣) انظر: الطّبري، تاريخ، ٤٠/٧، ٤٣، ١٠٩.

(٤) انظر: الطّبري، تاريخ، ٢٩٤/٧- ٢٩٥، مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العباسية، ص٢٤٠- ٢٤١، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٨٣/٣.

(٥) الطّبري، تاريخ، ٣٢٩/٧، ابن الأثير، الكامل، ١/٥.

(٦) الطّبري، تاريخ، ٣٢٩/٧، انظر: مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العباسية، ص٢٤٧- ٢٤٨.

(٧) الطّبري، تاريخ، ٥٠/٧، ابن الأثير، الكامل، ٣٨٢/٤.

(٨) الطّبري، تاريخ، ٥١/٧، ابن الأثير، الكامل، ٣٨٢/٤.

(٩) تاريخ، ١٩٨/٧.

(١٠) هو عبد الرّحمن بن مسلم من أهل فارس ولد في قرية قرب أصفهان في سنة «١٠٠هـ»، وقد عانى أبوه من أزمة مالية مما دفعه إلى بيع أمته وهي حامل بأبي مسلم إلى شخص اسمه عيسى بن معقل العجلي، وبعد ولادته نشأ مع أولاد عيسى العجلي حتّى شب وقد انتقل مع أمّه من أصفهان إلى قرية خطرنيه وهي من قرى الكوفة في أول شبابه، وقد صادف أن سجن بعض العجليين في سجن الكوفة في تهمة ما، فعمل على خدمة آل العجيلي في السّجن، وهناك التقى لأوّل مرة بمجموعة من نقباء بني العباس عندما زاروا آل العجيلي في السّجن فأعجب به الدّعاة العباسيون فكسبوه إلى دعوتهم وأخذوه معهم وأهدوه إلى زعيم الدّعوة العباسية إبراهيم الإمام، فأعجب بذكائه وقدراته فأصبح مولى له، وأصبح مرافقاً به، وبدت مقدرته حتّى أنّ إبراهيم كان يقول عنه هذا، عضلة من الفضل، وبعد اتصاله بالدّعوة العباسية كان الإمام إبراهيم يبعثه إلى خراسان حاملاً كتباً منه إلى سليمان بن كثير كبير الدّعاة العباسيين في خراسان، ومن ثم برز اسم أبو مسلم كقائد عسكري، وذلك عندما قام إبراهيم الإمام بإرساله ممثلاً عنه إلى الشّيعة العباسية في خراسان وكان أبو مسلم يلقب «بأمير آل محمّد»، وإليه يرجع الفضل الكبير في الانتصار الّذي حققته الدّعوة العباسية في خراسان، وكان مقتله على يد أبي جعفر المنصور سنة «١٣٧هـ»، انظر عن ذلك: مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العباسية، ص٢٥٧- ٢٥٨، ابن قتيبة، المعارف، ص٤٢٠، الحلبي، محمّد راغب بن حاتم الطّباخ «د. ت» إعلام النّبلاء بتاريخ حلب الشّهباء، ط حلب ١٩٢٣، ١٤٣/١- ١٤٤.

(١١) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٨٤/٣.

(١٢) مرو: أشهر مدن خراسان وقصبتها، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب «ت ٢٨٤هـ»، البلدان، ط النّجف ١٩١٨، ص٤٦.

(١٣) الظّل والسّحاب: الرّاية واللّواء بعث بهما إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم.

(١٤) السّواد: شعار العباسيين، القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي «ت: ٨٢١»، صبح الأعشى في صناعة الأنشى، ط القاهرة ١٩٤، ٢٧٤/٣.

العلامة المتفق عليها بينهم، فيجتمع العباسيون من كل مكان، ويستعدون للعمل[1].

واستطاعت القوات العباسية الثّائرة أن تحقق انتصارات رائعة في خراسان وطاردت بقيادة أبي مسلم الخراساني جيوش الأمويين في بلاد خراسان فانهزم الوالي الأموي نصر بن سيار إلى مدينة قومس[2]، ثم هرب إلى مدينة ساوه[3] حيث مات سنة «١٣١هـ»[4]، وفي يوم الخميس «٩ جمادى الأخرى سنة ١٣٠هـ» تمكن أبو مسلم من احتلال دار الإمارة الّتي كان ينزلها عمال خراسان[5].

ومن خراسان يخرج القائد قحطبة بن شبيب الطّائي قاصداً الكوفة[6]، واندفع الأمويون بقيادة يزيد بن عمر بن هبيرة يريدون الكوفة أيضاً، وحدثت بين الطّرفين معركة شديدة انتصر فيها قحطبة الطّائي على الجيش الأموي، فانسحب ابن هبيرة إلى مدينة واسط ووصلت الجيوش العباسية إلى مشارف الكوفة، فمات قحطبة فجأة فتولى قيادة الجيش ولده الحسن بن قحطبة[7].

أما عن استعدادات الكوفة لاستقبال الجيوش العباسية، فقد كان قحطبة قد كتب إلى أبي سلمة يخبره بعبوره الفرات، وبعث إليه كتاباً مع رجل من همدان، وبعد وصول الكتاب إلى أبي سلمة، بعث إلى محمّد بن خالد بن عبد الله القسري البجلي، قائلاً له: «قد كنت تتمنى هذا اليوم، فقد بلغته، فأظهر السّواد، وأخرج في مواليك وعشيرتك»[8].

وتنفيذاً لكتاب أبي سلمة فقد خرج محمّد بن خالد القسري ورفع السّواد وسار إلى القصر وأخرج منه نائب الوالي الأموي ومن معه من أهل الشّام، فاستولى على الكوفة وظبطها، وكتب بذلك إلى قحطبة وهو لا يعلم بمصرعه[9]، ولما وصل كتابه إلى الحسن بن قحطبة سار بالجيش العباسي، ودخل الكوفة دون أي مقاومة، وسلم الأمر إلى أبي سلمة الخلال «وزير آل محمّد»[10]، تنفيذاً لوصية أبيه قبل مصرعه[11]، فعين محمّد بن خالد القسري على الكوفة، فكان يقال له الأمير، حتّى ظهر أبو العباس، والمناداة به ومن على أرض الكوفة كأول خليفة عباسي، وبعد السّيطرة على الكوفة عسكر الحسن بن قحطبة ومعه أبو سلمة بالنّخيلة[12] ثم ارتحل إلى حمام أعين[13].

المبحث الثّاني

إعلان الخلافة العبّاسية في الكوفة وبيعة أبي العبّاس السّفاح

بعد الانتصار الّذي حققته الثّورة العبّاسية في خراسان، وتمكن الجيش العبّاسي من السّيطرة على الكوفة، وتسليم الأمر إلى أبي سلمة الخلال، كانت الكوفة على موعد مع حدث آخر بارز في تاريخها وما ذاك إلا إعلان عن بداية عهد جديد في تاريخ الدّولة العربية الإسلامية وتشرفها -أي الكوفة- باحتضان الاحتفال الرّسمي لتنصيب أوّل خليفة عبّاسي، وما كان الاختيار ليقع على الكوفة، إلا تقديراً للجهد الّذي بذلته في سبيل إنجاح الدّعوة الجديدة، أمّا عن كيفية وصول أعيان البيت العبّاسي إلى الكوفة، والظّروف الّتي رافقت إعلان الدّولة العبّاسية، فالحوادث التّاريخية تشير إلى أنّ إبراهيم الإمام نعى نفسه إلى أهل بيته بعد أن ألقي القبض عليه من قبل الخليفة الأموي مروان بن محمّد الّذي أمر بسجنه في حران[14]، ومن سجنه أوصى بالإمامة من بعده إلى أخيه أبي العبّاس، وأمره أن يسير هو وأهل بيته من الحميمة إلى الكوفة، بعد أن أوصاهم بالسّمع والطّاعة «لأبي العبّاس» وقد بعث الوصية مع سابق الخوارزمي مولاه[15]، وكان إبراهيم الإمام قد كتب إلى أخيه أبي العبّاس يوصيه «بالقيام بالدّولة والجد والحركة، وأن لا يكون له بعد الحميمة لبث ولا عرجة، حتّى يتوجه إلى الكوفة،

(١) الطّبري، تاريخ ٣٥٦/٧، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٨٧/٣، ابن الأثير، الكامل، ٢٨/٥.

(٢) قومس: كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع في ولاية ملكها، وأكبر مدينة فيها هي مدينة الدّامغان وهي بين الرّي ونيسابور، ومن مدنها المشهورة بسطام، بيار، شمنان، الاصطخري، أبي إسحق إبراهيم بن محمّد الفاري «توفى في النّصف الأوّل القرن الرّابع الهجري»، المسالك والمماليك، تحقيق: د. محمّد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمّد شفيق غربال، ط الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١، ص١٢٤، ياقوت، معجم البلدان، ٤١٤/٤.

(٣) ساوه: مدينة حسنة بين الرّي وهمذان، ياقوت، معجم البلدان، ١٧٩/٣.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص٤٠٩، ابن الأثير، الكامل، ٣١٧/٤.

(٥) الطّبري، تاريخ، ٣٧٧/٧.

(٦) انظر: مراحل سير قحطبة إلى العراق في: مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العباسية، ص ٣٢١- ٣٧١.

(٧) انظر الطّبري، تاريخ، ٤٢١/٧- ٤١٧، أبو الفدا المختصر في أخبار البشر، ٢١٠/١.

(٨) مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العباسية، ص٣٦٧.

(٩) الطّبري، تاريخ، ٤١٧/٧- ٤١٨، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٦/٣.

(١٠) الطّبري، تاريخ، ٤١٨/٧، المسعود، مروج الذّهب، ١٧٥/٢.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٤١٥/٧، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٥/٣.

(١٢) النّخيلة: تصغير نخلة، موضع قرب الكوفة على سمت الشّام، ياقوت، معجم البلدان، ٢٩٩/٢.

(١٣) حمام أعين: مكان في الكوفة نسبه إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص، ياقوت، معجم البلدان، ٢٩٩/٢، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٦/٣.

(١٤) حران: مدينة عظيمة تقع على طريق الموصل والشّام والرّوم، ياقوت، معجم البلدان، ٢٣٥/٢.

(١٥) الطّبري، تاريخ، ٤٢٣/٧، مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، ص٤٠٩- ٤١٠، المقدسي، البدء والتّاريخ، ٦٦/٦.

فإنّ هذا الأمر صائر إليه لا محالة»[1] ومن هذا النّص يتضح أنّ إبراهيم الإمام قد عين وبصورة رسمية أبا العبّاس قائداً جديداً للدعوة ومن أجل تنفيذ وصية أخيه، فقد سار أبو العبّاس وأهل بيته من الحميمة إلى الكوفة فوصلوها في صفر سنة «١٣٢هـ»[2]، وقد كان لهم بها أحد أكبر أنصار الدّعوة العبّاسية وهو أبو سلمة الخلال[3].

ويبدو أنّ وصولهم الكوفة كان مصدر إزعاج وعدم ارتياح لأبي سلمة الخلال إذا علق على خبر وصولهم قائلاً «خاطروا بأنفسهم وعجلوا فليقيموا بقصر مقاتل، حتّى ننظر في أمرنا»[4]، وبعد أن أنزلهم في قصر مقاتل[5] وجد أبو العبّاس ومن معه أنّ حياتهم في خطر خوفاً من الأمويين، فكتبوا إلى أبي سلمة، ليستأذنوه السّماح لهم في دخول الكوفة، فأذن لهم أبو سلمة في ذلك وعلى كره منه، وأنزلهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود وهي حي باليمن[6]، وكتم أمرهم نحو من أربعين ليلة عن جميع القواد وأنصار الدّعوة العبّاسية[7]، وكلف أبو سلمة اثنين من أتباعه وهم مساور القصاب ويقطين الابرازي[8] بمرافقتهم[9]، ويبدو أنّ أبو سلمة أراد أن يلم بأخبار أبي العبّاس ومن معه وما يخططون له، فكانت مهمة هذين الاثنين أشبه ما تكون بمهمة استخبارية -إن صح التّعبير- والقيام بأعمال التّجسس لصالح أبي سلمة.

وخلال فترة الإقامة الإجبارية الّتي فرضها أبو سلمة الخلال على بني العبّاس، ساورته نفسه في العمل على تحويل الدّعوة إلى العلويين، وخير دليل أولي على تحول موقف أبي سلمة أنّه بعدما وصل إليه الخبر بوصول أبي العبّاس ومن معه إلى الكوفة قال «أظن قد صح موت الإمام الّذي كان مؤتمناً له»[10] أي أنّ أبا سلمة -كما يتضح من النّص- قد أصبح في حل من بيعته للإمام الّذي مات، وأخذت الشّكوك تساور القادة الخراسانيين حول موقف أبي سلمة ومصير الإمام العبّاسي، فقد استفسر أبو الجهم بن عطية -أحد قواد الجيش- عن أبي العبّاس، فكان جواب أبي سلمة له «ليس هذا وقت خروجه لأنّ واسط لم تفتح بعد»[11].

وأخذ القادة الخراسانيون يضغطون على أبي سلمة ليكشف لهم عن موضع الإمام العبّاسي، ليذهبوا لبيعته، وكانوا يخاطبونه بلهجة قوية وصارمة فقالوا له «يا أبا سلمة مالك دعونا، وما أنت لنا بإمام»[12]، ولكن جهود أبي سلمة في النّهاية قد باءت بالفشل، وذلك عندما تمكن القادة الخراسانيون من العثور على الموضع الّذي كان يحتجز فيه أبو العبّاس وأسرته، وسلموا عليه بالخلافة وعزوه في أخيه إبراهيم الإمام[13].

وبعد مبايعة أبي العبّاس من قبل القادة الخراسانيين الّتي يمكن عدها بيعة خاصة لأنّها اقتصرت على الأنصار الخلّص، رجع أبو الجهم وغيره من القادة الخراسانيين، وخلفوا الباقين عند الإمام، وهنا يبدأ التّحول الجذري في موقف القادة الخراسانيين تجاه أبي سلمة، فقد أوصى أبو الجهم أبا حميد محمّد بن إبراهيم الحميري -أحد الدّعاة السّبعين- قائلاً: إن أتاكم أبو سلمة فلا يدخل إلا وحده، ولما جاء أبو سلمة منعوه من الدّخول ومعه أحد، فدخل أبو سلمة على أبي العبّاس مقدماً الاعتذار له عما بدر منه من تصرف، فقال له أبو العبّاس «عذرناك يا أبا سلمة، غير مفند، وحقك لدينا معظم، وسابقتك في دولتنا مشكورة، وزلتك مغفورة، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل، فانصرف إلى معسكره بحمام أعين»[14].

من هذا النّص يتضح أنّ أبا العبّاس أصبح المسؤول الأوّل، وباشر عمله قبل أن تعلن البيعة العامة في المسجد، كما يبين النّص الحنكة السّياسية الّتي كان يتمتع بها أبي العبّاس، فهو لم يقدم على أي عمل تجاه أبي سلمة على الرّغم من

(١) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٤٠/٣، مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، ص٤٠٢- ٤٠٣.

(٢) مؤلف مجهول، نبذة من كتاب التّاريخ، عني بنشرها وترجمتها بطرس غريازينوج، ط موسكو ١٩٦٠م، ص١١٣، وانظر: المقدسي، البدء والتّاريخ، ٦٦/٦.

(٣) ابن الطّقطقي، محمّد بن علي بن طباطبا «ت: ٧٠٩هـ»، الفخري في الآداب السّلطانية والدّول الإسلامية، ط غريفزولد ١٨٥٨م، ص١٨١.

(٤) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٥١/٣، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٨/٣.

(٥) قصر مقاتل: يقع ما بين عين التّمر والشّلام، وهو نسبة إلى مقاتل بن حسان، ياقوت، معجم البلدان، ٣٦٤/٤.

(٦) الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمّد بن إياس بن القاسم «ت: ٣٣٤هـ»، تاريخ الموصل، تحقيق الدّكتور علي حبيبة، ط القاهرة ١٩٦٧م، ص١٢٠، المسعودي، مروج الذّهب، ٢٤١/٣.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٨٤/٤، اليعقوبي، تاريخ، ١٨٥/٣، الطّبري، ٤٢٣/٧، بينما يجعل الجهشياري المدة شهرين، أبو عبد الله محمّد بن عبدوس «ت: ٣٣١هـ»، الوزراء والكتاب عني بتصحيحه وتحقيقه إسماعيل الصّاوي، ط١ مصر ١٩٣٨م، ص٥٦.

(٨) كانا من كبار الشّيعة لقيا محمّد بن علي في حياته فأمرهما أن يعينا أبي سلمة على أمره الدّينوري، الأخبار الطّوال، ص٣٥٨.

(٩) المصدر نفسه، ص٣٥٨.

(١٠) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٨/٣، الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٢٠.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٤٢٤/٧، ابن الأثير، الكامل، ٦٤/٥.

(١٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٧.

(١٣) انظر كيفية العثور على أبي العبّاس في الطّبري، تاريخ، ٤٢١/٧- ٤٢٢، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٨/٣- ١٩٩، ابن الأثير، الكامل، ٦٤/٥- ٦٥.

(١٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٨، وانظر: الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٢٣، المقدسي، البدء والتّاريخ، ٦٩/٦، برانق، محمّد أحمد، أبو العبّاس السّفاح، ط٢ القاهرة ١٩٦٣م، ص١٨.

إشارته له أنّه زل عن خط الدّعوة، وهذا الأمر من الأمور المسلّم بها، كون الدّولة الجديدة كانت في بداية الطّريق، فمن غير المعقول أن يقوم أبي العبّاس على عمل من شأنه أن يشق الصّفوف، خاصة وإذا ما علمنا أنّ أبا سلمة كان ذا منزلة كبيرة عند أصحابه وخلفه أتباع عديدون، لذلك ترك أبو العبّاس تقرير مصير الخلال إلى أن يحين الوقت المناسب، وقيل أنّ أبا سلمة لما دخل على أبي العبّاس وسلّم عليه بالخلافة قال له أبا حميد «على رغم أنفك يا بن الخلال»[1].

وبعد أن تم التّعرف على مكان احتجاز أبي العبّاس وما بعثه من قبل القادة الخراسانيين والأنصار الخلص، لم يبقَ أمام أبي العبّاس لاستلام مهماته كأوّل خليفة عبّاسي، سوى الخروج إلى المسجد الجامع والحصول على بيعة الجماهير العلنية، وهذا ما حصل فعلاً ولكن هناك اختلاف بين المؤرخين في الاتفاق على تاريخ بيعة أبي العبّاس في المسجد الجامع بالكوفة، ولكن أغلب المؤرخين يؤكدون أنّها كانت في يوم الجمعة «١٣» ربيع الأوّل سنة «١٣٢هـ»[2]، وينقل صاحب العيون أنّ أبا العبّاس صلى بالنّاس ليلة الجمعة في مسجد بني أود وهو أوّل مسجد صلى فيه لابساً السّواد، وفي هذه الليلة صعد أبو سلمة الخلال المنبر في مسجد الكوفة فحمد الله وأثنى عليه، وخطب في النّاس وأوصاهم أن يأتوا إلى المسجد لبيعة أبي العبّاس[3].

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٨٥/٤.

(٢) ابن خياط، تاريخ، ٤٣٤/٢، ابن حبيب، أبو جعفر محمّد بن حبيب الهاشمي البغدادي «ت: ٢٤٥هـ»، المحبر، تحقيق: الدّكتورة ايلزه ليختن شيز، ط الهند ١٩٠٩م، ص٣٣، ابن قتيبة، المعارف، ص٢٣٢، اليعقوبي، تاريخ، ٨٦/٣، الطّبري، تأريخ، ٢٤٠/٧، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٩/٣، ابن أبي الحديد، أبو حامد عز الدّين عبد الحميد المدائني «ت: ٦٥٦هـ»، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة ١٩٦٠م، ١٥٣/٧، ابن خلكان، أبو العبّاس شمس الدّين محمّد بن محمّد بن أبي بكر «ت: ٦٨١هـ»، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس، ط بيروت ١٩٧٧م، ٣١٥/٦، ابن الوردي، زين الدّين عمر بن مظفر «ت: ٧٤٩هـ»، تاريخ ابن الوردي، ط النّجف ١٩٦٩م، ٢٥٧/١، القلقشندي، أحمد بن عبد الله «ت: ٨٢١هـ»، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد السّتار أحمد فرج، ط الكويت ١٩٦٤م، ١٧/١، بينما يذكر الدّينوري أنّها كانت في شهر رجب سنة «١٣٢هـ»، الأخبار الطّوال، ص٣٣٠، ويذكر المسعودي أنّ البيعة كانت في شهر ربيع الآخر سنة «١٣٢هـ»، التّنبيه والأشراف، ص٢٩٢، ويتفق معه ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدّين أحمد بن محمّد الأندلسي المالكي «ت: ٣٢٧هـ»، العقد الفريد، ضبطه وصححه أحمد أمين وآخرون، ط٢ القاهرة ١٩٦٢م، ٤٨١/٤، وفي حين يذكر الخطيب البغدادي أنّها كانت في «١٤» ذي الحجة «١٣٢هـ»، أبو بكر أحمد بن علي «٤٦٣هـ» تاريخ بغداد، ط مصر ١٩٣١م، ٤٧/١٠.

(٣) ابن أعثم الكوفي، أبو محمّد أحمد «ت: ٣١٤هـ»، الفتوح، ط بيروت د. ت، ١٧٨/٨، انظر: أمير علي، سيّد، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، ط١ بيروت ١٩٦١م، ص١٧٤.

وفي صبيحة يوم الجمعة كانت الكوفة على موعد مع حدث آخر مشع وبارز في تاريخها كمدينة عربية إسلامية، وما ذاك إلا انتظار التّنصيب الرّسمي فلبست الكوفة ثوب الفرح والانتصار وأخذت تستعد لاتخاذها عاصمة من جديد لقيادة العالم العربي الإسلامي، فضربت الطّبول وخفقت الرّايات ونفخت البوقات ولبس أهل الكوفة كلّهم السّواد[4]، واصطف القواد والنّاس بسلاحهم منتظرين خروج الخليفة المنتظر، وقد حضروا له الملابس الّتي يلبسها وأتوا بالدّواب الّتي يركبها هو وأهل بيته، وبالسّلاح الّذي يحمله وساروا إلى المسجد الجامع[5]، ويذكر ابن أعثم الكوفي أنّ أبا سلمة دخل المسجد وكان لابساً السّواد، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمّداً فصلى عليه وعلى آله الطّيبين، ثمّ أرسل أبو سلمة إلى أبي العبّاس فدعاه[6].

سار أبو العبّاس ومعه أهل بيته وكان راكباً برذوناً أبلق[7]، فدخل دار الإمارة ثمّ خرج إلى المسجد، وصلى بالنّاس ثمّ صعد المنبر حيث بويع له بالخلافة ووقف في أعلاه وصعد عمّه داود بن علي فوقف دونه[8].

لقد كان أبو العبّاس على درجة عالية من الذّكاء والفطنة فهو من أوّل لحظة اعتلى فيها المنبر قام بحركة لها مدلولها البعيد نالت استحسان النّاس، وذلك أنّه خطب على المنبر قائماً محطماً التّقليد الّذي سار عليه بنو أمية الّذين كانوا يلقون الخطبة قعوداً، فكان هذا العمل بمثابة رسالة منه إلى النّاس إلى أنّه سوف يعمل ويسير على سنة رسول الله(ﷺ) وبالفعل فقد وجد عمله هذا أصداء طيبة لدى النّاس فأخذوا ينادون « يا بن عم رسول الله أحييت سنة رسول الله(ﷺ)»[9].

(٤) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ١٣٨/٨.

(٥) ابن السّاعي، علي بن أنجب البغدادي «ت: ٦٧٤هـ»، مختصر أخبار الخلفاء، ط١ مصر ١٣٠٩هـ، ص٥، ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن احرون الطّبيب الملطي «ت: ٦٨٥هـ»، مختصر تاريخ الدّول، ط٢ بيروت ١٩٥٨م، ص١٢٠.

(٦) الفتوح، ١٧٨/٨.

(٧) البرذون: الحصان.

(٨) الطّبري، تاريخ، ٢٤٢/٧- ٤٢٥، ابن كثير، أبو الفداء عماد الدّين إسماعيل «ت: ٧٧٤هـ»، البداية والنّهاية في التّاريخ، ط مصر د. ت، ٤٠/١٠.

(٩) اليعقوبي، مشاكلة النّاس لزمانهم، تحقيق وليم هلورد، ط١ بيروت ١٩٦٢م، ص٢٢٠، ابن دحيه، أبو الخطاب عمر بن الشّيخ الإمام أبي علي حسن، بن علي سبط ا لإمام أبي البسام الفاطمي «ت: ٦٣٣هـ»، النّبراس في تاريخ خلفاء بني العبّاس صححه وعلق عليه المحامي عبّاس العزاوي، ط بغداد ١٩٤٦م، ص٢٠.

وبعد ذلك خطب أبو العبّاس خطبة، أخذ يؤكد فيها على قرابتهم من رسول الله(ﷺ)، وعلى أحقيتهم بالحكم، وتناول بني أمية ووصفهم بأنّهم غاصبون، وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى قد أتم لهم النّصر في النّهاية وقيام دولتهم، وتوجه أبو العبّاس إلى أهل الكوفة قائلاً «يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الّذين لن تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم تحامل أهل الجور عليكم حتّى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد النّاس وأكرمهم علينا، وقد زدت في أعطياتكم مئة درهم فاستعدوا فأنا السّفاح المبيح والثّائر المبير»[1].

وواضح من النّص المتقدم الاعتراف الصّادر من أعلى المستويات في الدّولة الجديدة، والمتمثلة بالخليفة، بدور الكوفة وأهلها ومساهمتهم الفعالة في إنجاح الدّعوة العبّاسية وصولاً إلى إعلان الخلافة العبّاسية على أرضهم، كما أنّ النّص يحمل في معناه أسلوب التّرغيب والتّهديد، فلا يمكن اعتبار زيادة أبي العبّاس لأعطيات أهل الكوفة إلا محاولة منه لجذب الكوفيين أكثر فأكثر، وفي نفس الوقت فإنّ أبا العبّاس قد أعطى إنذاراً لكلّ من يحاول أن يشذ عن خط الدّولة بأنّ مصيره سوف يكون الحتف المحتوم، وهذا ما يمكن أن نفسر فيه كلمة الثّائر المبير، وبعد إلقائه هذه الخطبة أصبح أبو العبّاس يلقب بالسّفاح.

وبعد إكمال أبي العبّاس السّفاح لخطبته، جلس على المنبر بعد أن اشتد الوعك عليه، فقام عمّه داود بن علي العبّاسي وألقى خطاباً دل على بلاغته وفصاحته فقد وصفه المقدسي بأنّه «كان فصيحاً بليغاً»[2]، وكما فعل أبو العبّاس فإنّ داود بن علي أكد في خطبته على ما ذهب إليه أبو العبّاس من تأكيد حقهم بالخلافة، وتناول بني أمية، ثمّ توجه إلى أهل الكوفة قائلاً «يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتّى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون.. ودالكم على أهل الشّام، ونقل إليكم السّلطان، وعز الإسلام.. إلا أنّه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله(ﷺ) إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) وأمير المؤمنين عبد الله بن محمّد، وأشار بيده إلى أبي العبّاس، فاعلموا أنّ هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتّى نسلمه إلى عيسى بن مريم(عليه السلام)، والحمد لله رب العالمين ما أبلانا وأولادنا»[3].

(١) انظر الخطبة في الكامل في الطّبري في تاريخ، ٤٢٥/٧- ٤٢٦، وانظر: البلاذري، أنساب الأشراف ١٨٧/٤- ١٨٨، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٩/٣- ٢٠٠، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٤/٧، الأربلي، عبد الرّحمن سنط قنيتو «ت: ٧١٧هـ»، خلاصة الذّهب المسبوك مختصر سير الملوك، صححه مكي سيّد جاسم، ط بغداد د. ت، ص٥٤- ٥٥.

(٢) البدء والتّاريخ، ٧٠/٦.

(٣) انظر: الطّبري، ٤٢٦/٧- ٤٢٨، مؤلف مجهول، نبذة من كتاب التّاريخ، ص١١٩- ١٢٠، الأربلي، خلاصة الذّهب، ص٥٥.

وواضح من الخطبة كما يرى الدّكتور عبد العزيز الدّوري، أنّها تضم بين ثناياها نوعاً من الدّعاية للدولة الجديدة بقول داود «أنّ الأمر فينا ليس بخارج منا حتّى نسلمه إلى عيسى بن مريم(عليه السلام)»[4]، كما أنّ هذه الفكرة انتشرت بين النّاس وأنّ الخلافة ستبقى بيد العبّاسيين حتّى يسلموها إلى عيسى بن مريم[5].

وبعد إكمال الخطبتين، ذهب أبو العبّاس وداود بن علي إلى قصر الإمارة، وأجلس أخاه أبا جعفر لأخذ البيعة على النّاس، وصلى بهم صلاة العصر ثمّ صلاة المغرب[6]، والحقيقة أنّ هذه المهمة الّتي أسندها أبو العبّاس لأخيه أبي جعفر تعكس لنا بوضوح مقدار الثّقة الّتي وضعها باخيه أبي جعفر، ومعلقاً عليه الآمال بالقيام بالدّور الأكبر في سياسة الدّولة الجديدة[7] ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أنّ إقدام أبي العبّاس في اختصاص أبي جعفر بهذا العمل دون غيره من الأشخاص، نابع من حرصه على أن يكسب أخوه شيئاً من الخبرة السّياسية بتعامله مع النّاس وجهاً لوجه كي تضاف إلى خزينه السّياسي كونه ولياً للعهد وخليفة مرتقب بعد أخيه.

وبعد أن تم الأمر لأبي العبّاس وتمت عملية تنصيبه كأوّل خليفة عبّاسي، بدأت الكوفة تستعد لاستقبال الوافدين لتقديم البيعة للخليفة الجديد، فقد وصل إلى الكوفة وفدٌ من شيوخ الشّام، كان قد أرسله عم الخليفة عبد الله بن علي[8]، كما وصل إلى الكوفة وفدٌ من أهل نجران، وقفوا في طريق أبي العبّاس بعد انصرافه من المسجد إلى منزله، وأخذوا ينثرون عليه الرّيحان، فكان ذلك مصدر إعجاب لدى أبي العبّاس[9].

وهكذا تمت مراسيم تنصيب الخليفة العبّاسي الأوّل بالكوفة دون حصول أي شيء يعكر صفو الاحتفالات، فلم نجد أية إشارة في المصادر العربية تشير إلى حدوث شيء من هذا القبيل، وهذا يقودنا إلى القول، أنّ الكوفة خضعت لإجراءات أمنية مشددة بغية الاحتفالات بتنصيب الخليفة، قضت على أية

(٤) العصر العبّاسي الأوّل، ط بغداد ١٩٤٥م، ص٥٥- ٥٦.

(٥) حتي، فليب وآخرون، تاريخ العرب مطولة، ط٢ بيروت ١٩٥٣م، ٣٦٠/٢، عمر، فاروق العبّاسيون الأوائل، ط١ بيروت ١٩٧٠م، ١٧٢/١.

(٦) الطّبري، تاريخ، ٤٢/٧، أبو الفدا، المختصر أخبار البشر، ٢١٠/١.

(٧) العاني، حسن فاضل زعين، سياسة أبي جعفر الدّاخلية والخارجية، ط بغداد ١٩٨١م، ص٦٨.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ٤٢/ ٢١٠، الصّابي، غرس النّعمة أبو الحسن محمّد بن هلال «ت: ٤٨٠هـ»، الهفوات النّادرة، تحقيق: الدّكتور صالح الأشتر، ط١ دمشق ١٩٦٧م، ص٣٧١، وانظر: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ١٩٥/٨.

(٩) قدامه، أبو الفرج جعفر الكاتب البغدادي «ت: ٣٣٧»، الخراج وصناعة الكتاب، شرح وتحقيق الدّكتور محمّد حسين الزّبيدي، ط بغداد ١٩٨١م، ص٢٧٤.

محاولة ممكن أن يقوم بها أنصار الأمويين أو غيرهم باستهداف الخليفة أو نشر الفوضى بالمدينة.

وبعد أن تمت البيعة لأبي العبّاس السّفاح، نزل أوّل أمره في حمام أعين بضواحي الكوفة في معسكر أبي سلمة الخلال واتخذه مقراً له وجنده وقد قام فيه أشهراً[1]، وكان أبو العبّاس على علم بالنّوايا الحسنة والسّيئة لأهل الكوفة، ويدرك كلّ الإدراك أنّها ذات ميول علوية بالدّرجة الأولى، وهذا ما قد يجعلها مصدر خطر على السّلطة العبّاسية، لذلك فضل السّكن بين جنده في حمام أعين[2]، ثمّ بدا أبو العبّاس يبحث عن مكان ملائم يبني عليه عاصمة له، فوقع اختياره على نفس المكان الّذي كان أمير العراق الأموي يزيد بن هبيرة قد بنى فيه مدينته الّتي لم يُبنَ منها سوى القصر الّذي يعرف «بقصر ابن هبيرة»، فاستكمل أبو العبّاس البناء فيها وسماها «الهاشمية»، لكنه لم يمكث طويلاً بهذه المدينة، حيث بقي اسم مدينة ابن هبيرة ملاحقاً لها ومنتشراً بين النّاس، وهذا ما سبب إزعاجاً للخليفة أبي العبّاس وجعله يقول «ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها فرفضها»[3]، فاختار مكاناً آخر في ضواحي الكوفة أسماه «الهاشمية»[4]، والّتي تعرف بهاشمية الكوفة، كان ذلك عام «١٣٢هـ»[5]، ثمّ تحول من الهاشمية إلى الحيرة[6][7]، ولم تكن الحيرة إلا مكاناً مؤقتاً نزل به العبّاسيون، حيث أنّهم كانوا يفكرون في اختيار عاصمة دائمة تكون أكثر صلاحية وآمنَ مقاماً من الكوفة[8].

وبالفعل ففي سنة «١٣٤هـ» انتقل أبو العبّاس من الحيرة إلى الأنبار[9]، فبنى له مدينة على شاطئ الفرات سماها الهاشمية[10]، ويرى الدّكتور العميد أنّ إصرار بني العبّاس على إطلاق تسمية الهاشمية على جميع المدن الّتي بناها نابع من حرصه على تخليد البيت العبّاسي وتأكيده على حب هذا البيت، وطاعته لذلك أطلق هذا الاسم على جميع تلك المدن[11]، ويمكن أن نضيف إلى ذلك سبباً آخر هو رغبة الخليفة أبي العبّاس في أن تكون هذه التّسمية رمزاً للوحدة بين طرفي بني هاشم «العلويين والعبّاسيين»، لذلك حرص أن تكون التّسمية واحدة في جميع المدن الّتي بناها.

المبحث الثّالث

أبو سلمة الخلال وموقفه من الخلافة العبّاسية

أبو سلمة هو حفص بن سليمان بن الخلال الهمداني[12]، مولى لقبيلة السّبيع بن همدان[13]، أو لبني الحارث بن كعب[14]، وقد اختلف المؤرخون في لقبه، فابن الطّقطقي يورد ثلاث روايات حول تلقيبه بهذا اللقب، الأولى تقول أنّ منزله كان قريباً من محله الخلالين وكان يجالسهم فنسب إليهم[15]، والثّانية تقول أنّه كان له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب إلى ذلك[16]، والثّالثة تقول أنّها نسبة إلى خلل السّيوف وهو غمادها[17].

والرّاجح أنّ لقبه هو على الأغلب نسبة إلى بيع الخل، وما يؤيد ذلك هو أنّ الدّينوري وهو من المؤرخين القدامى ينقل رواية تقول «كان أبو سلمة خلالاً يمتهن بيع الخل فكان إذا أمسوا أقبل مساور بشقة لحم، وأقبل أبو سلمة بخل، وأقبل يقطين بالابراز فيطبخون ويأكلون»[18]، وفي ذلك يقول أبو جعفر المنصور:

لحمُ مساور وخل أبو سلمة

وابراز يقطين وطابت المرقة[19]

وكما ذكرنا سابقاً، فإنّ بداية اتصال أبي سلمة الخلال مع الدّعوة العبّاسية كان عن طريق بكير بن ماهان كبير الدّعاة العبّاسيين في الكوفة، والّذي كان أبو سلمة يرتبط معه بعلاقة نسب، وبعد وفاة بكير بن ماهان سنة «١٢٧هـ»، يعهد إبراهيم

(١) الطّبري، تاريخ، ٤٣١/٧، انظر: العميد، طاهر مظفر، تخطيط المدن العربية الإسلامية، ص٢٩٧.

(٢) انظر: عمر، العبّاسيون الأوائل، ١٥/٢، العميد، تخطيط المدن العربية الإسلامية، ص٢٩٩.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٨.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٨، الطّبري، تاريخ، ٤٣١/٧.

(٥) العميد، تخطيط المدن الإسلامية، ص٢٩٨.

(٦) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موقع يقال له النّجف، أبو الفدا، عماد الدّين إسماعيل، «ت: ٧٣٢هـ»، تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، ط باريس ١٩٨٤م، ص٢٩٧.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ٩٤/٥، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٦٢/٢، القلقشندي، مآثر الأناقة، ١٧٢/١.

(٨) شلبي، موسوعة التّاريخ الإسلامي، ٢٢٢/٣.

(٩) الأنبار: مدينة تقع على الفرات في غرب بغداد بينهما عشرة فراسخ، وأوّل من بناها سابور بن هرمز المعروف بذي الأكتاف، سميت بالأنبار لأنّه كان يجمع فيها أنابير الحنطة والشّعير والتّين، ياقوت، معجم البلدان، ٢٥٧/١.

(١٠) اليعقوبي، البلدان، ص٦، التّاريخ، ٩٨/٣.

(١١) العميد، تخطيط المدن الإسلامية، ص٣٠٠.

(١٢) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٧٠/٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٩٥/٢.

(١٣) الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٢٠، المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص٢٩٣.

(١٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٥.

(١٥) الفخري في الآداب السّلطانية، ص١٨١، وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٩٦/٢- ١٩٧، أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل «ت: ٣٩٥هـ»، الأوائل، تحقيق: محمّد السّيد الوكيل، ط طنجة د. ت، ص٢٧٨.

(١٦) الفخري في الآداب السّلطانية، ص١٨١.

(١٧) الفخري في الآداب السّلطانية، ص١٨١، انظر الجشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٥.

(١٨) الأخبار الطّوال، ص٣٥٩.

(١٩) المصدر نفسه.

الإمام رئاسة الدّعوة العبّاسية في الكوفة إلى أبي سلمة الخلال، فيبدأ هذا بممارسة دوره كحلقة وصل بين الإمام بالحميمة ومسرح الثّورة في خراسان، وكان أبو سلمة من مواسير أهل الكوفة، وأنفق في سبيل إقامة دولة بني العبّاس أموالاً كثيرة، وكان ينتقل فيما بين الكوفة وخراسان من أجل الدّعوة إلى بيعة إبراهيم الإمام[1]، وقد بقي نشاطه في خراسان إلى سنة «١٢٨هـ»، ثمّ سلم الأمر إلى أبي مسلم الخراساني بناء على أمر زعيم الدّعوة إبراهيم الإمام[2]، وبانتصار الثّورة العبّاسية، ودخول الجيش العبّاسي الكوفة يوم «١١» محرم سنة «١٣٢هـ» فإنّهم أظهروا أبا سلمة وسلموه الأمر، يقول الجهشياري «وسموه وزير آل محمّد ودبر الأمور، وأظهر الإمامة الهاشمية ولم يسم الخليفة»[3].

أمّا عن موقف أبي سلمة الخلال من الدّعوة العبّاسية، فإنّ الشّكوك حامت حوله منذ أن وصله خبر وصول أبي العبّاس وعائلته إلى الكوفة، فحاول تغيير مسار الدّعوة إلى اتجاه آخر ويدل على ذلك قوله «أظن قد مات الّذي كان يؤتمر له»[4]، ويفهم من هذا أنّ أبا سلمة أصبح في حل من بيعته للإمام المتوفي، ثمّ حاول أن يكسب مزيداً من الوقت حتّى يتدبر أموره، ويدل على ذلك قول أبي سلمة إلى رسول أبي العبّاس السّفاح الّذي أرسله حتّى يسمح لهم بدخول الكوفة قائلاً «خاطروا بأنفسهم وعجلوا فليقيموا بقصر مقاتل -وهو على مرحلتين من الكوفة- حتّى ننظر في أمرنا»[5]، ثمّ سمح لهم بدخول الكوفة وحبسهم في دار الوليد بني أود وخباهم أربعين ليلة[6].

وكان أبو سلمة ينهى أبا العبّاس عن الخروج ويقول له «إنّ الأمر لم يتم بعد وأنّ موالي بني أمية قائمون بالحرب والأمر أشد مما كان»[7]، وتصرفات أبي سلمة هذه أثارت شك وارتياب القادة وأهل خراسان، وأخذوا يحذرون أبا سلمة قائلين له «يا أبا سلمة مالك دعونا وما أنت لنا بإمام»[8]، وبالفعل فإنّ أبا سلمة أثبت أنّه كان عازماً على تحويل مسار الدّعوة، وإلى ذلك يشير المسعودي قائلاً «وقد كان أبو سلمة حفص سليمان حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام، أضمر الرّجوع عما كان عليه من الدّعوة العبّاسية إلى آل أبي طالب»[9].

ولكي يحقق أبو سلمة تطلعاته، فقد عمد إلى مراسلة ثلاثة من أبرز العلويين وهم: الإمام جعفر بن محمّد الصّادق(عليه السلام)، وعبد الله بن الحسن المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وعمر بن علي بن الحسن، آملاً في أن تتلاقى أفكار أحدهم مع أفكاره، وأمر أبو سلمة رسوله أن يقابل الإمام جعفر الصّادق(عليه السلام) أوّلاً، ويعرض عليه الأمر، فإن قبل فلا حاجة للالتقاء بالآخرين، وبالفعل التقى رسول أبي سلمة مع الإمام جعفر الصّادق(عليه السلام)، وعرض عليه الأمر، فكان موقفه سلبياً جداً من رسالة أبي سلمة، ناكراً أن يكون أبو سلمة الخلال من شيعته[10].

ويمكن أن نفسر موقف الإمام هذا، بأنّه كان يدرك كلّ الإدراك مدى سيطرة العبّاسيين على مقاليد الأمور، وقوة مؤسستهم الدّعائية، الّتي بذلت الشّيء الكثير من أجل تهيئة الأذهان والظّروف لهم، فضلاً على أنّ الإمام الصّادق(عليه السلام) كان بعيداً عن الخوض بشؤون السيّاسة، منصرفاً إلى العلم، فقد كان الإمام من أفقه أبناء عصره، ومدرسة ينهل منها الجميع وفي مختلف مشارب العلم، فتوجه رسول أبي سلمة - بعد رفض الصّادق- إلى عبد الله بن الحسن المحض وسلّمه رسالة أبي سلمة فرّق له الأمر، لكنه كان قلقاً، فتوجه إلى الإمام جعفر الصّادق(عليه السلام) ليأخذ رأيه بالموضوع، فحذره الإمام الصّادق(عليه السلام) من الإقدام على هذا الأمر والموافقة على رسالة أبي سلمة[11]، وهناك رواية أخرى تقول أنّه ذهب إلى الإمام الصّادق وأخبره بأنّه سيكلف ابنه للقيام بالأمر، فنهاه الإمام عن ذلك[12]، ولكن عبد الله بن الحسن لم يقتنع بذلك عاداً الأمر ضرباً من ضروب الحسد من قبل الإمام الصّادق(عليه السلام)[13]، ثمّ اجتمع بأهل بيته وقال لهم «أنا شيخ كبير وابني محمّد أولى بهذا الأمر»[14]، وهو بذلك يوصيهم بمبايعة ابنه والدّعوة له.

وبعد هذه المحادثات حمل رسول أبي سلمة موافقة عبد الله بن الحسن على فكرته، ولكن هذه الموافقة كانت عديمة

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٩٦/٢، ابن الطّقطقي، الفخري، ص١٨٣.

(٢) مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، ص٢٦٩، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٨٤/٣.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٦.

(٤) الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٢٠.

(٥) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٥١/٣، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٨/٣.

(٦) البلاذري، ١٨٤/٤، اليعقوبي، تاريخ، ٨٢/٣، مؤلف مجهول، نبذة من كتاب التّاريخ، ص١٤٢.

(٧) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة، ١٤٢/٢.

(٨) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٧.

(٩) المسعودي، مروج الذّهب، ٣٦٨/٣، انظر كذلك: الطّبري، تاريخ، ٤٢٩/٧.

(١٠) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٤١/٣، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٧.

(١١) ابن الطّقطقي، الفخري، ص١٨٢، التّنوخي، أبو علي الحسن أبي القاسم «ت: ٣٨٤هـ»، الفرج بعد الشّدة، ط١ القاهرة ١٩٥٥، ص٣٤٩، العدوي، إبراهيم أحمد، التّاريخ الإسلامي آفاقه السّياسة وأبعاده الحضارية، ط القاهرة د. ت، ص٢٦٧.

(١٢) اليعقوبي، تاريخ، ٨٦/٣، وانظر: المسعودي، مروج الذّهب، ٢٥٤/٣.

(١٣) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٥٥/٣.

(١٤) اليعقوبي، تاريخ، ٨٦/٣

الجدوى، بعد فشل مساعي أبي سلمة وتمكن الدّعاة العبّاسيين من الاهتداء إلى مكان أبي العبّاس ومبايعته كما رأينا، فوضع أبو سلمة نفسه في مأزق حرج، فلا هو عبّاسي كما كان مع إبراهيم الإمام، ولا وجد من الشّيعة من ينصره ويأخذ بيده، فأسرع أبو سلمة للحفاظ على حياته إلى الاعتذار من الخليفة وإعلان بيعته له.

وقد اختلفت آراء المؤرخين في تفسير الأسباب الّتي دفعت أبا سلمة للإقدام على مراسلة العلويين، فمنهم من يرى أنّ تمركز أبي سلمة وهيمنته على مقاليد الأمور دفعه إلى مكاتبة العلويين[1]، وإلى هذا أشار الدّكتور فاروق عمر عازياً إقدام أبي سلمة على ذلك رغبة منه في ترشيح خليفة علوي ضعيف، ليكون هو المدبر الفعلي للدولة[2]، في حين يشير المسعودي أنّ إقدام أبي سلمة على هذا الأمر كان نابعاً من حرصه على نجاح الدّعوة العبّاسية قائلاً «أنّه لما قتل إبراهيم الإمام خاف أبو سلمة انتقاض الأمر وفساده»[3]، وبعض المؤرخين يعزو إقدام أبي سلمة على ذلك، رغبة منه أن يجعل الأمر شورى بين بني هاشم من عبّاسيين وعلويين، ولكنه عدل عن ذلك وقال «أخاف ألا يتفقوا»[4].

وينفرد ابن خلكان وحده في تبرئة ساحة أبي سلمة من التّهمة المنسوبة إليه قائلاً «أنّ القوم توهموا من أبي سلمة أنّه مال إلى العلويين»[5]، وهذا ما لا يتفق مع الحقيقة فأغلب المؤرخين القدامى أشاروا إلى أن أبا سلمة كان عازماً على تحويل الأمر إلى العلويين، فيذكر البلاذري في هذا الصّدد أنّ أبا سلمة أراد أن يعدلها عنهم إلى ولد فاطمة[6]، ويعزز قول البلاذري ما ذهب إليه اليعقوبي قائلاً «إنّ أبا سلمة إنما أخفى أبا العبّاس وأهل بيته ودبر أن يصير الأمر إلى بني علي بن أبي طالب»[7]، ويذهب ابن الطّقطقي إلى قول كلّ من البلاذري واليعقوبي قائلاً «لما سبر أبو سلمة أحوال بني العبّاس عزم عن العدول عنهم إلى بني علي»[8].

(١) الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٢٠.

(٢) تاريخ العراق في عصر الخلافة الإسلامية «اهـ- ٦٥٦هـ»، ط ١ بغداد ١٩٨٨م، ص٥٦- ٥٧.

(٣) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٤١/٣.

(٤) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ١٩٦/٣، التّنوخي، الفرج بعد الشّدة، ص٣٢٨، مؤلف مجهول، نبذة من كتاب التّاريخ، ص١١٤، ابن عنبه، السّيد جمال الدّين أحمد بن علي الحسيني «ت: ٨٢٨هـ»، عمدة الطّالب في أنساب آل أبي طالب، ط النّجف د. ت، ص١٠١.

(٥) وفيات الأعيان، ١٩٦/٢.

(٦) أنساب الأشراف، ١٨٤/٤.

(٧) تاريخ، ١٨٩/٣.

(٨) الفخري، ص١٨٢.

ومما تقدم يتضح أنّ الأدلة كلّها تشير إلى إدانة أبي سلمة، وتورطه في الإعداد لعملية انقلاب وتحويل الأمر إلى العلويين، وتخبط أبي سلمة هذا إن دل على شيء فإنما يدل على قصر نظره، فقد كان أغلب أهل خراسان لم يكن هواهم مع العلويين، فكيف ينتظر منهم أبو سلمة التّأييد إن حصل ما خطط له[9].

تصفية أبي سلمة:

سارع أبو سلمة، بعد فشل مخططاته، وافتضاح أمره إلى بيعة السّفاح وتقديم الاعتذار، فبادره أبو العبّاس بالقول «عذرناك يا أبا سلمة غير مفند، وحقك لدينا معظم وسابقتك في دولتنا مشكورة، وزلتك مغفورة، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل»[10]، ولا يفهم من ذلك أنّ أبا العبّاس قد غفر زلة أبي سلمة، ولكنه كان في حاجة لتأييد أبي سلمة ومناصرته حتّى تستتب له الأمور[11].

فالظّروف السّياسية الحرجة كانت لا تسمح بإثارة أي خلاف أو مشاكل جديدة حول هذا الموضوع الخطير، وقد دلت الأحداث فيما بعد أنّ أبا العبّاس لم يغفر زلة أبي سلمة أبداً[12]، وكان البيت العبّاسي في حيرة من أمره، وزادت شكوكه حول الدّوافع الّتي دفعت أبا سلمة للقيام بذلك، وفي هذا الصّدد يقول أبو جعفر: «لما ظهر العبّاس أمير المؤمنين، سمرنا ذات ليلة فذكر ما صنع أبو سلمة، فقال رجل منا: ما يدريكم لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم؟ فلم ينطق منا أحد، فقال أمير المؤمنين: لئن كان هذا عن رأي أبي مسلم إنا لبعرض بلاء، إلا أن يدفعه الله عنا»[13].

والحقيقة هي أنّ أبا العبّاس كان شديد الاستياء من أبي سلمة، فخلال فترة الشّهرين والنّصف وهي مدة انفراد الخلال بالسّلطة إلى أن بويع السّفاح[14]، أعطى أبو سلمة لنفسه صلاحيات واسعة من دون استشارة أبي العبّاس، فقام بتعيين القواد والعمال، فعين أبا الجهم على ديوان الجند، وأبا غانم عبد الحميد الرّبعي على الشّرطة وعبد الله بن بسام على الحرس، وعمر بن الزّيات على حجابته، والمغيرة بن الرّيان على الخراج[15] وصارت الدّواوين بحضرته والكتب تنفذ وترد إليه[16]، وبعث إلى فارس عمالاً من قبله[17]، وكان أبو سلمة

(٩) برانق، محمّد أحمد، الوزراء العبّاسيون، ط مصر د. ت، ص٨٢.

(١٠) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٨، وانظر: المقدسي، البدء والتّاريخ، ٦٩/٦.

(١١) شلبي، موسوعة التّاريخ الإسلامي، ٤٨/٣.

(١٢) العاني، سياسة المنصور، ص٧١.

(١٣) الطّبري، تاريخ، ٤٢٨/٧، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ٣٨١/٤- ٣٨٢.

(١٤) الدّوري، العصر العبّاسي الأوّل، ص٥٣.

(١٥) مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، صورة ٣٧٦- ٣٧٧.

(١٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٥٧.

(١٧) مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، ص٣٧٧.

يحاول دائماً أن يشعر أبا العبّاس بقدرته وتنفذه، وإلى ذلك يشير ابن قتيبة قائلاً «وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين»[1].

ومما زاد في استياء أبي العبّاس من أبي سلمة، أنّه كان يتخذ القرارات ويصدر الأوامر بصورة انفرادية دون مشاورته، إذ يذكر الدّينوري: «أنّه يتخذ الأمور من غير مؤامرة»[2]، هذه الأمور مجتمعة قادت في النّهاية إلى اتخاذ أبي العبّاس قراراً بتصفية أبي سلمة، ولكن كيف تم ذلك؟

أخذ أبو العبّاس السّفاح يشعر بالقلق، فالوضع خطير جداً إن صحت التّكهنات حول وقوف أبي مسلم وراء عمل أبي سلمة، فأرسل أبو العبّاس في طلب أبي جعفر ودار بينهم الحوار الآتي: «أبو العبّاس: ما ترى؟ أبو جعفر: الرّأي رأيك، أبو العبّاس: ليس منا أحد أخص بأبي مسلم منك، فاخرج حتّى تعلم ما رأيه، فليس يخفى عليك، فلو قد لقيته فإن كان عن رأيه، أخذنا لأنفسنا، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا»[3] فاستعد أبو جعفر للسفر إلى خراسان تنفيذاً لرغبة الخليفة الّذي أرسل معه كتاباً لأبي مسلم جاء فيه: «إنّه لم يزل عن رأي أمير المؤمنين وأهل بيته الإحسان إلى المحسن والتّجاوز عن المسيء ما لم يفسد دينا، وإنّ أمير المؤمنين قد وهب جرم حفص بن سليمان لك، وترك إساءة إحسانك إن أحببت ذلك»[4].

وبعد أن وصل أبو جعفر إلى أبي مسلم حاملاً كتابه، بعث أبو مسلم إلى الخليفة كتاباً يشير عليه فيه بقتل أبي سلمة، ومما جاء في الكتاب: «إن كان رأيك منه ريب فاضرب عنقه»[5]، فلما وصل كتاب أبي مسلم إلى أبي العبّاس، استشار وزراءه في كتاب أبي مسلم فكان جوابهم: «إنّك لا تأمن من أن يكون ذلك غدراً من أبي مسلم، وأن يكون إنما يريد أن يجد السّبيل إلى ما تتخوف منه، ولكن اكتب إليه أن يبعث إليك برجل من قواده يضرب عنقه»[6]، كذلك نصحه عمّه داود بن علي قائلاً له: «لا تتولّ قتله فتخبث نفس أبي مسلم ويحتج بذلك عليك، ولكن اكتب إليه فليوجه من يقتله»[7].

(١) الإمامة والسّياسة، ١٤٥/٢.
(٢) الأخبار الطّوال، ص٣٧٠.
(٣) الطّبري، تاريخ، ٤٨٨/٧، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ٣٨١- ٣٨٢.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٠٤/٤.
(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة، ١٤٥/٢.
(٦) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة، ١٤٥/٢، وانظر كذلك: البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٠٣/٤، الطّبري، تاريخ، ٤٤٩/٧.
(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٠٤/٤، انظر: الطّبري، تاريخ، ٢٤٩/٧، ابن الأثير، الكامل، ٤٣٦/٥.

فعمل أبو العبّاس السّفاح بما وجه إليه من نصح، وأرسل إلى أبي مسلم يطلب منه أن يبعث رجلاً من قبله كي ينفذ عملية تصفية أبي سلمة، فاستجاب أبو مسلم لذلك وأرسل إليه رجلاً يقال له مرار بن أنس الضّبّي، فكان وصول هذا إلى الكوفة قبل قتل أبي سلمة بثلاثة أيّام[8].

وهنا بدأ أبو العبّاس السّفاح يدير عملية دعائية إعلامية تنم عن عقلية كبيرة يشوبها المكر والدّهاء، فقد أرسل أبو العبّاس منادياً من قبله ينادي بالكوفة: «إنّ أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة»[9]، فأراد بعمله هذا أن يبعد عنه كلّ شبهة قد تدور حوله بعد قتل أبي سلمة، فيتخذ أصحاب أبي سلمة موقفاً عدائياً منه، في وقت هو في أشد الحاجة للاستقرار وتثبيت دعائم حكمه[10].

ثمّ دعاه قبل يوم مقتله بيوم فخلع عليه[11]، وكان يسمر عنده، فخرج ليلته تلك يريد الانصراف إلى منزله وقد كمن له مرار بن أنس الضّبّي على طريقه فلما خرج قتله[12]، وشاع أنّ الخوارج قتلوه[13]، وصلى عليه يحيى بن محمّد علي، فقال سليمان بن مهاجر البجلي:

إنّ الـــوزير وزيـــر آل محمّـــد
أودى فمـــن يـــشناك كـــان وزيـــرا[14]

ولم يجد قتل أبي سلمة أي رد فعل لدى الخليفة أبي العبّاس، وكيف لا وهو من خطط لذلك، وعلى ضوء ما خطط نفذ أبو مسلم الخراساني وعندما وصله خبر قتل أبي سلمة قال شامتاً: «لليدين والفم»[15] وفي رواية أخرى أنّه قال: «لليدين أو هنوا»[16]، وأنشأ يقول:

إلـى النّـار فليـذهبن ومـن كـان مثلـه
علـى أي شـيء فاتنـا منـه ناسـف[17]

وبقتل أبي سلمة تكون الكوفة قد خسرت واحداً من أبرز رجالها، شارك وساهم وبذل الكثير في سبيل تخليصها من الحكم الأموي، وذلك من خلال تزعمه قيادة الدّعوة الجديدة في هذه المدينة، ولكن سوء تقدير أبي سلمة جعله يخط بيده نهايته

(٨) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٦٠.
(٩) الطّبري، تاريخ، ٤٤٩/٧، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٦٠.
(١٠) برانق، أبو العبّاس، ص٥٤.
(١١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٦٠.
(١٢) اليعقوبي، تاريخ، ٨٩/٣، الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٤٥.
(١٣) الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٤٥، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٦٠.
(١٤) اليعقوبي، تاريخ، ٩٠/٣، الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٤٥.
(١٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٦٠.
(١٦) الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٤٥.
(١٧) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٨٥/٣.

المؤلمة، إضافة إلى حب الانفراد بالسّلطة والتّخلص من الزّعماء المتنفذين من جانب أبي العبّاس السّفاح الّذي يتحمل وبالدّرجة الأولى مسؤولية قتل أبي سلمة من خلال تعاونه مع أبي مسلم الّذي نفذ ما خطط له الخليفة.

المبحث الرّابع
الكوفة في عهد أبي جعفر المنصور

يعد الخليفة أبو جعفر المنصور «١٣٦- ١٥٨هـ»، المؤسس الحقيقي لدولة بني العبّاس، إذ بذل الكثير من الوقت والجهد في سبيل توطيد أسس الدّولة والتّخلص من المناوئين، يساعده في ذلك ما كان يمتلكه من عقلية سياسية كبيرة كان لها دور بارز فيما حققته الدّولة من انتصارات[١].

وفيما يتعلق بالكوفة، فإنّ المنصور لم يتركها لحظة تغيب عن باله، فهو يعرف مقدار الثّقل الّذي تشكله، والدّور الممكن أن تلعبه في تغير معالم الخارطة السّياسية إذا سنحت لها الفرصة، فبعد أن تمت البيعة للمنصور أحب أن يكون قريباً من الكوفة، فنزل في مدينة الهاشمية الّتي بناها أخوه أبو العبّاس، لكنه كره المقام بها بعد أن أوشك أن يخسر حياته جراء تمرد الرّاوندية فيها، فأخذ يفكر في اختيار عاصمة جديدة تكون أكثر أمناً واستقرار من هاشمية الكوفة، وفي نهاية المطاف وقع اختياره على مدينة بغداد لتكون حاضرة لحكمه[٢]، فيشرع في البناء، ولكن الكوفة تتدخل وتجبره على تأجيل حلمه مؤقتاً، فأخذ يحث الخطى في سبيل الوصول إليها، ليطا اصمخة أهلها كما يقول هو في ذلك[٣]، بعد أن وصلت إليه الأنباء بإعلان محمّد النّفس الزّكية لثورته في المدينة، فيشرع أبو جعفر بإعلان حالة الطّوارئ في الكوفة، ويفرض حولها طوقاً أمنياً مشدداً عزلها عن العالم الخارجي، وعلى الرّغم من تمكن المنصور من الانتصار على محمّد النّفس الزّكية وقضائه على ثورته، إلا أنّ المنصور لم يغادر الكوفة، وذلك بعد أن وصلته الأنباء الّتي تفيد بأنّ إبراهيم بن عبد الله أخا محمّد النّفس الزّكية أعلن ثورته في البصرة، فشدد المنصور من الإجراءات الأمنية واتبع مختلف الحيل والألاعيب لإيهام الكوفيين بقوته، وسيطرته على مقاليد الأمور على الرّغم من أنّه لم يكن معه بالكوفة سوى العدد القليل من الجند.

أ- تمرد الرّاوندية بهاشمية الكوفة:

بعد أن تمت البيعة لأبي جعفر، نزل في بداية أمره بالمدينة الهاشمية الّتي بناها أخوه الخليفة الأوّل أبو العبّاس السّفاح «١٣٢هـ- ١٣٦هـ» فعمل على زيادة البناء فيها واستكمل نواقصها[٤]، واستمرت إقامة أبي جعفر المنصور بالمدينة الهاشمية إلى أن قامت الرّاوندية بحركتها ضد المنصور سنة «١٤١هـ»[٥].

والرّاوندية سموا بهذا الاسم نسبة إلى قرية راوند القريبة من أصفهان الّتي كانت مهد دعوتهم[٦]، ويصفهم المسعودي بأنّهم «شيعة ولد العبّاس بن عبد المطلب»[٧]، ويرى الدّوري أنّ تعلقهم بالعبّاسيين كان نتيجة للجهود المبذولة من قبل الدّعاة العبّاسيين في إيران[٨]، ونادت الرّاوندية بآراء متطرفة بعيدة عن الإسلام[٩]، فقدسوا العبّاسيين وألّهوهم، وكانوا يعتقدون أنّ العبّاسيين أحق من غيرهم بالخلافة[١٠].

وصنف المؤرخون الرّاوندية إلى مجموعتين يطلق على الأولى العبّاسية[١١]، والثّانية الهاشمية[١٢]، وكلّ مجموعة بدورها تنقسم إلى عدد من الفرق الّتي تنادي بآراء خاصة بها[١٣]، وفرقة الرّاوندية الّتي تمردت على المنصور بهاشمية الكوفة تنتمي إلى المجموعة الثّانية، أسسها عبد الله الرّاوندي، أحد الدّعاة في فترة

(١) عن دور أبي جعفر في تثبيت أسس الدّولة انظر: العاني، سياسة أبي جعفر: ص١٠١- ٣٩٤.

(٢) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٣/٢.

(٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٤٥/٣.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٨.

(٥) الطّبري، تاريخ، ٥٠٥/٧، ابن الأثير، الكامل، ٥٠٢/٥.

(٦) النّوبختي، أبو محمّد الحسن بن موسى «ت: ٢٠٢هـ»، فرق الشّيعة، ط اسطنبول ١٩٣١م، ص٤١، الدّوري العصر العبّاسي الأوّل، ص٨٨.

(٧) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٥٢/٣، وانظر: ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمّد «ت: ٨٠٨هـ» العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، ط بيروت، ١٩٧٩م، ١٧٣/٣.

(٨) العصر العبّاسي الأوّل، ص٨٨، وانظر: سرور، محمّد جمال الدّين، الحياة السّياسية في الدّولة العربية الإسلامية، ط مصر ١٩٦٠م، ص١٨٤.

(٩) عمر، تاريخ العراق، ص٦٠.

(١٠) المسعودي، مروج الذّهب، ٢٠٢/٣، المقدسي، البدء والتّاريخ، ٨٣/٦، ابن حزم، أبو محمّد علي بن أحمد بن سعيد الظّاهري الأندلسي «ت: ٤٥٦هـ»، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ط١ القاهرة، ١٣١٧، ٩٠/١، ابن خلدون، العبر، ١٨٥/٣.

(١١) هذه المجموعة تعتقد أنّ الرّسول(ﷺ) أوصى بالإمامة لعمّه العبّاس ثمّ ورثه عنه أولاده، انظر: المسعودي، مروج الذّهب، ٢٠٢/٣، النّوبختي، فرق الشّيعة، ص٤١.

(١٢) هذه المجموعة تعتقد بانتقال الإمامة من أبي هاشم إلى محمّد بن علي بالوصية ثمّ إلى عبد الله بن علي ثمّ ساقوا الإمامة حتّى انتهوا إلى أبي جعفر المنصور، المسعودي، مروج الذّهب، ٢٢٧/٣، الأشعري، مقالات الإسلاميين، ٩٤/١، البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، «ت: ٤٢٠هـ»، الفرق بين الفرق، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، ط القاهرة د. ت، ص٤٠.

(١٣) حول ذلك انظر: ابن النّديم، محمّد بن إسحق «ت: ٣٨٥هـ»، الفهرست، ط بيروت ١٩٧٨، ص٤٨٣، الأسفراييني، أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن علي الشّافعي «ت: ٤٧١هـ»، التّبصر في الدّين وتميز الفرقة النّاجية عن فرق الهالكين، تخريج وتعليق محمّد زاهد بن الحسن الكوثري، ط بغداد ١٩٥٥، ص١١٤، الشّهرستاني، الملل والنّحل، ١٥٣/١- ١٥٤.

الدّعوة بخراسان[1]، وقد اعتبر هؤلاء المنصور ربهم الّذي يرزقهم ويطعمهم ويسقيهم[2].

فهم بذلك يرفعونه إلى درجة القدسية، وجعلوا أبا مسلم الخراساني نبيه[3]، وكانوا يعتقدون بتناسخ الأرواح، وانتقالها من جسد إلى آخر[4].

وقد قام هؤلاء الرّاوندية وعددهم ستمئة شخص بالذّهاب إلى قصر المنصور، وجعلوا يطوفون به ويقولون هذا قصر ربنا[5].

والحقيقة هي أنّ المنصور سمح لهم وبصورة غير مباشرة في المضي قدماً في إلحادهم وإشراكهم بالله عز وجل، وكأنّه يشجعهم على ذلك، ويبدو ذلك واضحاً من خلال رده على أحد أصحابه قائلاً: «إن يدخلهم الله عز وجل النّار في طاعتنا أحبُّ إليّ من أن يُدخلهم الجنة بمعصيتنا»[6]، ولكن المنصور بعد أن وجد أنّ الرّاوندية أخذوا يقلقون الأمن ويهددون النّظام، أعطى أوامر بحبس مئتين من رؤسائهم وأمرهم المنصور أن يتفرقوا ولا يجتمعوا[7].

وهنا بدا التّغير في العلاقة بين المنصور والرّاوندية، الّذين ذهبوا يخططون لإنقاذ أصحابهم، فاعدوا نعشاً وحملوه، وليس بالنّعش أحدٌ، فهجموا على السّجن وأخرجوا أصحابهم وقصدوا الخليفة، فتنادى النّاس وغلقت باب المدينة فلم يدخل أحد[8].

وهكذا تطورت الأمور إلى الحد الّذي أصبح يشكل خطراً على حياة الخليفة نفسه، فلم يكن هناك العدد الكافي من القوات الّتي يمكنها أن توفر الحماية الكافية للخليفة وتحافظ في الوقت نفسه على الوضع الأمني الّذي أخذ بالاضطراب، فوجد أبو جعفر نفسه مضطراً لأن يخرج بنفسه ماشياً -لعدم وجود دابة يركبها- مع بعض أصحابه لمواجهة الرّاوندية، ثمّ أتى له بدابة فركبها، فتدافعوا عليه حتّى كادوا يقتلونه[9]، لكن تواجد معن بن زائدة الشّيباني إلى جانبه أنقذ الموقف في تلك اللحظة الحرجة[10]، وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم فوقف بباب القصر وحال بينه وبين من يريد اقتحامه[11]، ونودي في أهل السّوق والأهالي فرموهم وقاتلوهم، ثمّ فتحت أبواب المدينة فدخل النّاس، ودخل خازم بن خزيمة فحمل عليهم، حتّى ألجأهم إلى ظهر الحائط فاحتموا به، وفي النّهاية تمكن المنصور وأصحابه من القضاء على هذا التّمرد، الّذي قُتل فيه عثمان بن سهيل رئيس حرس المنصور، حيث رموه بنشابة بين كتفيه، فمرض أيّامها ثمّ مات[12].

وحادثة الرّاوندية هذه، على الرّغم من بساطتها واستخفاف المنصور بها في بداية أمرها، كادت تؤدي بحياة الخليفة فتركت هذه الحادثة أثراً بالغاً في ذهن المنصور لم يغب عن باله وفي ذلك يقول: «.. وخرجت يوم الرّاوندية ولو أصابني سهم غرب لذهبت ضياعاً..»[13].

وحادثة الرّاوندية هذه جعلت المنصور يفكر أكثر من أي وقت مضى بوجوب إنشاء عاصمة جديدة تكون على درجة عالية من التّحصين تحفظ له حياته، وكذلك كانت هناك رغبة في نفس المنصور بالابتعاد عن الكوفة وأهلها، ولكن دون إهمالها.

ب- وضع الكوفة الأمني أثناء ثورتي محمّد النّفس الزّكية وأخيه إبراهيم ابني عبد الله المحض:

على أثر تمرد الرّاوندية بهاشمية الكوفة، وما تعرض له المنصور الّذي كاد أن يفقد حياته، كره الخليفة أبو جعفر المقام بالكوفة ومجاورة أهلها، وأراد أن يبعد بجيشه عنهم[14]، فبدأ بالبحث عن عاصمة جديدة تكون مقراً لحكمه فوقع اختياره على بغداد وأخذ يشرع ببنائها، وعلى الرّغم من انتقال المنصور من الكوفة، فإنّه لم يتركها لحظة تغيب عن باله، فهو يعرف الكوفة جيداً، فكان هناك من ينقل إليه أخبارها أوّلاً بأوّل، فيذكر الطّبري أنّ المنصور اختار رجلاً من أهل الكوفة يدعى ابن مقرن وأوكل إليه القيام بأعمال التّجسس على أهل الكوفة ونقل أخبارهم إليه[15].

(١) انظر: مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، ص٢٢٢.

(٢) انظر: مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٢٧/٣، الرّفاعي، محمّد بن أبي بكر بن علي بن عبد الملك بن حمادي بن دكين الموصلي «ت: ٧٥٠هـ»، روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزّمان، مخطوط مصور في مكتبة الحكيم العامة في النّجف تحت رقم ٣٩٠، عن نسخة المكتبة التّيمورية تحت رقم ٨٩٣/ تاريخ، ص٩٤.

(٣) النّوبختي، فرق الشّيعة، ص٤٧.

(٤) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٢٧/٣، الطّبري، تاريخ، ٥٠٥/٧، ابن الطّقطقي، الفخري، ص١٨٨.

(٥) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٢٧/٣، ابن الطّقطقي، الفخري، ص١٨٩.

(٦) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٢٧/٣.

(٧) الطّبري، تاريخ، ٥٠٥/٧، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٣/٢.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣١٥/٤، ابن الأثير، الكامل، ٥٠٢/٥، الرّفاعي، مخطوط روضة الأعيان، ص٩٤.

(٩) ابن الأثير، الكامل، ٥٠٢/٥، ابن الطّقطقي، الفخري، ص١٢٧.

(١٠) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٨٨/٣، المقدسي، البدء والتّاريخ، ٨٤/٦، الرّفاعي، مخطوط روضة الأعيان، ص٩٤.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٥٠٦/٧، ابن الأثير، الكامل، ٥٠٣/٥، وكان أبو النّصر من أصحاب أبي مسلم، فعفا عنه الخليفة لموقفه هذا.

(١٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣١٦/٤، الطّبري، تاريخ، ٥٠٦/٧، ابن الأثير، الكامل، ٥٠٣/٥.

(١٣) الطّبري، تاريخ، ٥٠٧/٧.

(١٤) الطّبري، تاريخ، ٦١٤/٧، ابن الطّقطقي، ص١٨٩.

(١٥) الطّبري، تاريخ، ٦٣١/٧.

وحتّى بداية عهد أبي جعفر المنصور كانت العلاقة طيبة بين الهواشم «العبّاسيين والعلويين» وأوّل من خرج من العلويين على أبي جعفر هو محمّد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب(عليه السلام) بالمدينة لليلتين بقيتا من جمادى الأخرى سنة «١٤٥هـ» وذلك بعد أن جرت بينهما مراسلات طويلة يؤكد كلّ طرف فيها أحقيته بالخلافة[١].

والأمر الّذي يهمنا هنا -بعيداً عن تفاصيل الثّورة ومراحل تطورها- هو كيف تعاملت الكوفة مع هذه الثّورة، كونها مركزاً كبيراً للعلويين؟ وهل كانت لها مشاركة في أحداثها؟ أم أنّ المنصور كان له رأي آخر في الحد من تطلعات الكوفيين؟

تشير المصادر التّاريخية إلى أنّ المنصور بدأ بوضع حجر الأساس لمدينة بغداد سنة «١٤٥هـ» وباشر البناء، فلما بلغ حائط المدينة قامة توقف عن البناء، بعد أن وصلته الأنباء بإعلان محمّد النّفس الزّكية لثورته في المدينة[٢]، فبدأ المنصور باستشارة أصحاب المعرفة بأمور الحرب، في كيفية مواجهة الثّورة والإجهاز عليها، وبعد مناقشة عدد من الآراء، استقر أخيراً على رأي عمّه عبد الله بن علي الّذي نصحه بالإسراع إلى الكوفة، حتّى يجثم على أكباد أهلها، فإنّهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم، وأشار عليه أن يحيطها بالمسالح ويضرب عنق الخارج منها والدّاخل إليها، ويبعث إلى مسلم بن قتيبة -وكان في الرّي- بأن ينحدر إليه وهو بالكوفة، كذلك أشار عليه بأن يكتب إلى أهل الشّام ويأمرهم بإرسال الرّجال الأشداء ويوجههم مع مسلم[٣]، ومما تقدم يتضح لنا أنّ الأنظار كلّها كانت متجهة إلى الكوفة، خوفاً منها أن تصبح جبهة ثانية للثورة، فالكوفة -مركز التّشيع- قد يغريها نسب محمّد العلوي، ورفعه لواء المعارضة للدولة كما أنّ اتخاذ محمّد للقب «المهدي»[٤]، كان له بريق خاص، وهذا اللقب يعد من العلامات المميزة للعقيدة الشّيعية، لذا فمن المؤكد أنّ أهل الكوفة سيكونون سراعاً لمساندة محمّد بن عبد الله حينما أتيحت لهم الفرصة، ولأجل ذلك فقد اقتنع الخليفة أبو جعفر بما أشار عليه عمّه عبد الله بن علي وأخذ يحث الخطى للوصول إلى الكوفة

(١) انظر: خبر المراسلات في: الطّبري، تاريخ، ٥٦٦/٧- ٥٧١.

(٢) الطّبري، تاريخ، ٦١٩/٧، الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٩٤، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٦٦/١.

(٣) الطّبري، تاريخ، ٥٦٤/٧- ٥٦٥، الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمّد بن أحمد «ت: ٣٥٦هـ»، مقاتل الطّالبين، قدم له وأشرف على طبعه كاظم المظفر، ط٢ النّجف ١٩٦٥م، ص١٧٩- ١٨٠.

(٤) الباشا، حسن الألقاب الإسلامية في التّاريخ والوثائق والآثار، ط القاهرة ١٩٥٧م، ص٥١٤.

وهو يقول: «أطا اصمختهم وأقطعهم عن إمداد محمّد بن عبد الله بن حسن، فإنّهم سراع إلى أهل هذا البيت»[٥]، وبانتقال الخليفة إلى الكوفة، انتقل إليها مركز قيادة الدّولة من جديد ولو بصورة مؤقتة، ومنها بدا المنصور يخطط ويدير العمليات لإخماد ثورة محمّد بن عبد الله، فأمر بفرض الحصار الاقتصادي على المدينة، وأمر عامله على مصر بقطع الميرة عن أهل الحرمين، وبعث إلى ابن أخيه العبّاس بن محمّد وهو بالجزيرة يأمره بأن يبعث إليه وهو بالكوفة، ما يقدر عليه من الرّجال، حتّى يقلل من الاعتماد وعلى الخراسانيين ممن كانوا معه[٦].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حرص المنصور بالمحافظة على الكوفة والحيلولة دون إفساح المجال لها في المشاركة بهذه الثّورة، لذلك أخذ المنصور بطلب المزيد من القوات لتعزيز الحالة الأمنية داخل الكوفة، ولكي يتفادى خطر الكوفيين وغدرهم فإنّه أمر بحفر خندق على قواته[٧].

ويبدو أنّ المنصور كان صائباً حينما قرر ترك بناء بغداد والرّحيل إلى الكوفة مركز التّشيع وقبلة الثّائرين، فقد أدى وجوده في الكوفة وفرضه للطوق الأمني حولها، إلى عدم فسح المجال الواسع أمام الكوفيين للمشاركة بهذه الثّورة أو دعمها، وبعد استقرار الخليفة أبي جعفر بالكوفة، استدعى ولي عهده عيسى بن موسى وشاوره في الأمر، وقال له: إما أن تخرج وأقيك فامدك، وإما أن أخرج فتمدني، فقال: بل أقيك بنفس وأكفيك هذا الوجه إن شاء الله[٨]، فجهز له جيشاً من أربعة آلاف فارس[٩]، وألفي راجل[١٠]، وأتبعه بحميد بن قحطبة في جيش كثيف[١١]، وضم إليه محمّد بن أبي العبّاس مع قواد آخرين[١٢]، وكان للمنصور هذا الدّاهية نظرة بعيدة في تكليف عيسى بن موسى للقيام بهذه المهمة، فمهما تكن نتيجة المعركة فهي كسب له، فإن قتل محمّد بن عبد الله، فإنّه بذلك يتخلص من ألد أعدائه، وإن قتل عيسى بن موسى فهو كسب له أيضاً، فذلك يفسح له المجال لينصب ابنه المهدي ولياً للعهد، وما يدعم ذلك قول أبو جعفر: «لا أبالي أيهما قتل صاحبه»[١٣].

(٥) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٤٥/٣.

(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٦١/٤، انظر: الطّبري، تاريخ، ٦٢١/٧.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٦١/٤.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٦١/٤، وانظر: المسعودي، مروج الذّهب، ٣٠٧/٣.

(٩) الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٨٧، المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص٢٩٥.

(١٠) المسعودي، مروج الذّهب، ٣٠٧/٣.

(١١) اليعقوبي، تاريخ، ٣/ المسعودي، مروج الذّهب، ٣٠٧/٣.

(١٢) ابن الأثير، الكامل، ٥٤٤/٥، الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص١٨٠.

(١٣) الطّبري، تاريخ، ٥٧٧/٧، ابن الأثير، الكامل، ٥٤٤/٥.

سار عيسى بن موسى إلى المدينة، فالتقى الطّرفان وحصلت المعركة الفاصلة بينهما، وكانت النّتيجة انتصار عيسى بن موسى وقتل محمّد بن عبد الله وكان قتله يوم الاثنين «١٤» رمضان سنة «١٤٥هـ»[١]، وأرسل رأس محمّد بن عبد الله إلى المنصور بالكوفة، فأمر أن يطوف به في المدينة[٢]، ليشعرهم بانتصاره وقوة سلطانه.

وبعد انتصار عيسى بن موسى على محمّد النّفس الزّكية، واطمئنانه إلى الأمن بالمدينة ارتحل إلى مكة لغرض أداء العمرة[٣]، وبينما هو في الطّريق إليها أتاه أمر عاجل من أبي جعفر يطلب منه القدوم إليه بقواته إلى الكوفة، لأنّ إبراهيم بن عبد الله أعلن الثّورة بالبصرة ليلة الاثنين أوّل شهر رمضان سنة «١٤٥هـ»[٤]، فتوجه إليه بقواته، وعمل الخليفة أبو جعفر، بعد أن وصلته أنباء ثورة إبراهيم إلى تشديد إجراءاته الأمنية بالكوفة والحيلولة دون السّماح للكوفيين من العمل على مساندة إبراهيم، فكيف لا يفعل أبو جعفر ذلك وهناك: «خمسمئة ألف مقاتل ينتظرون به صيحة»[٥].

ولأجل ذلك فقد أصدر الخليفة أبو جعفر الأوامر لرئيس حرسه المسيب بن زهير الضّبي، والّتي تقضي بمنع التّجوال من بعد صلاة العشاء إلى الفجر، وإعلان حالة الطّوارئ بالكوفة، فأصدر رئيس الحرس بياناً جاء فيه «من أخذناه بعد عتمه فقد أحل بنفسه»[٦]، فكان إذا أخذ رجلاً بعد عتمه لفّه في عباءة واحتجزه عنده حتّى يحل الصّباح فيسأل عنه، فإذا تبين له أنّه برئ أطلق سراحه، وإذا كان عكس ذلك فمصيره السّجن[٧]، وكان وضع أبي جعفر بالكوفة محرجاً، فلم يكن معه من الجند سوى ألف وخمسمئة جندي، فعمد رئيس حرسه إلى تقسيمهم إلى ثلاث دوريات من أجل مراقبة الحالة الأمنية وإنجاح نظام منع التّجوال، فكانت كلّ دورية مؤلفة من خمسمئة جندي، تطوف الكوفة كلّها في كلّ ليلة[٨].

وركن أبو جعفر إلى ذكائه ودهائه لغربلة الكوفيين، ومعرفة من يناصر إبراهيم منهم، فكتب كتباً على لسان إبراهيم بن عبد الله، يخبر فيها بأنّه يثق بهم ويعتمد عليهم ويأمرهم بالوثوب على أبي جعفر ثمّ أخذ فيجاً فدفع الكتب إليه وهي مفضوضة، وقال له انطلق بها إلى أهل الكوفة، وأعلمهم أنّ إبراهيم وجهك بها وإنّي ظفرت بك ففضتها، فلما وصلت الكتب إلى أربابها هرب من كان على اتصال بإبراهيم، وأخذ الكتاب من كان بريئاً فجاء به إلى أبي جعفر وحلف له على براءته فقبل منه ذلك[٩].

والحقيقة أنّ أمر إبراهيم بن عبد الله قد أخذ الحيز الكبير من تفكير المنصور، وفي ذلك يقول: «لا أنام ولا أغير لباسي حتّى أرى رأس إبراهيم عندي، أو يرى رأسي عنده»[١٠]، وكان أبو جعفر إذا اتهم أحداً من أهل الكوفة بالميل إلى إبراهيم، أرسل إليه مسلم مولى قحطبة ليلاً فيغتاله ويأخذ خاتمه[١١]، ويبدو أنّ المنصور أراد أن يطمئن نفسيته القلقة، ويجعل عينه ترى شعار العبّاسيين منتشراً في كلّ مكان بالكوفة، فأمر النّاس بلبس السّواد، فأذعنوا صاغرين لذلك حتّى يتجنبوا غضبه[١٢].

ولإشعار الكوفيين بأنّه في وضع عسكري جيد وسيطرة تامة على مقاليد الأمور، كان يأمر أتباعه بإشعال النّيران الكثيرة ليلاً: «فيحسب النّاظر إليها أنّ ثمّ جنداً كثيراً»[١٣]، وعمد المنصور إلى التّلاعب بأعصاب الكوفيين ليقضي على أي أمل لهم في التّفكير للقيام بثورة داخلية للانقضاض على حكمه ومساندة إبراهيم بن عبد الله، فأمر أن يكون قدوم جند الشّام الّذين بعث في طلبهم «إرسالاً بعضهم على أثر بعض فإذا جنهم الليل في عسكره أمرهم فرجعوا منكبين عن الطّريق، فإذا أصبحوا دخلوا، فلا يشك أهل الكوفة أنّهم جند آخرون سوى الأولين»[١٤].

ولإحكام الطّوق الأمني الّذي فرضه أبو جعفر على الكوفة، فإنّه وضع قوة عسكرية في القادسية بقيادة أبي الفضل بن معقل الخراساني، وأمره بإلقاء القبض على كلّ من يحاول الالتحاق بصفوف إبراهيم من أهل الكوفة، فتمكن هذا من إلقاء القبض[١٥] على بعض الكوفيين، كانت وجهتهم البصرة فقتلوهم جميعاً وكان عددهم أثني عشر رجلاً.

(١) المسعودي، مروج الذّهب، ٣٠٧/٣.
(٢) الطّبري، تاريخ، ٦٠١/٧.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ٢٦٣/٥، ابن الوردي، ٢٦٤/١.
(٤) ابن خياط، تاريخ، ٤٤٩/٢، ابن قتيبة، المعارف، ص٣٧٨، البسوي، أبو يوسف يعقوب بن شعبان «ت: ٢٧٧هـ»، المعرفة والتّاريخ، تحقيق: الدّكتور أكرم العمري، ط بغداد ١٩٧٤م، ١٢٦/١.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ١٧١/٥.
(٦) الطّبري، تاريخ، ٦٣١/٧.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) الإسكافي، محمّد بن عبد الله الخطيب «ت: ٢٤١هـ»، كتاب لطف التّدبير، حققه وعلق عليه أحمد عبد الباقي، ط القاهرة د. ت، ص١٨٩- ١٩٠.
(١٠) ابن الأثير، الكامل، ٢٦٨/٥، ابن كثير، أبو الفدا، عماد الدّين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي، البداية والنّهاية في التّاريخ، ط مصر د. ت، ٩٣/١٠.
(١١) الطّبري، تاريخ، ٦٣١/٧، الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٢١٣.
(١٢) الطّبري، تاريخ، ٦٣١/٧، انظر: الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٢١٢- ٢١٣.
(١٣) ابن كثير، البداية والنّهاية، ٩٣/١٠.
(١٤) الطّبري، تاريخ، ٦٣١/٧، الطّبري، تاريخ، ٦٣٠/٧.
(١٥) المصدر نفسه، ٦٣٢/٧.

وعلى الرّغم من إجراءات المنصور الأمنية المشددة، فإنّ عدداً من الكوفيين استطاع الوصول إلى البصرة والالتحاق بصفوف إبراهيم[1]، كما كان لإبراهيم بعض الأتباع يحثون أهل الكوفة لنصرته، فكان ابن ماعز الأسدي يبايع له بالكوفة سراً[2]، وإلى جانب ذلك كان بعض فقهاء وعلماء الكوفة يحثون النّاس على نصرة إبراهيم، فكان أبو حنيفة يفتي النّاس بالخروج مع إبراهيم، وكتب إليه هو ومسعر بن كرام، يدعونه إلى أن يقصد الكوفة ويضمنا له نصرتها ومعونة أهلها[3].

وبدأ أبو جعفر يباشر في تقوية الاستعدادات العسكرية لمنازلة إبراهيم بن عبد الله، فأرسل إلى حرب الرّاوندي -أحد قواد المنصور- وكان مقيماً في ألفي جندي بالموصل، يأمره بالتّوجه إلى الكوفة، فنفذ ما طلبه منه أبو جعفر[4]، وكتب إلى مسلم بن قتيبة الباهلي وهو يومئذ بالرّي، يأمره بسرعة القدوم عليه بقواته المرابطة معه، وضمه إلى جعفر بن سليمان بن علي، وكاتب ابن قتيبة البصرة، فلحقت به قبيلة باهلة[5]، وأرسل المنصور إلى ابنه المهدي المعسكر بقواته بالرّي، يطلب منه توجيه القائد خازم بن خزيمة إلى الأحواز[6]، ووجه المنصور عامر بن إسماعيل في خمسة آلاف مقاتل إلى واسط لاحتلالها بعد أن استولى عليها هارون بن سعد -وهو من أهل الكوفة- والّذي تركها بعد مقتل إبراهيم، فدخل عامر بقواته إلى واسط فضبطها[7].

وبينما كان إبراهيم بن عبد الله يستعد للمسير إلى الكوفة، وصله خبر مقتل أخيه محمّد النّفس الزّكية يوم الفطر، فأثر ذلك تأثيراً كبيراً على نفسيته، وخطب بالنّاس وأعلمهم الخبر[8] وأخذ أهل الكوفة ممن كانوا معه يحثونه على المسير إلى الكوفة والانقضاض على أبي جعفر المنصور، وكانوا يقولون «أصلحك الله إنّ بالكوفة رجالاً لو قد رأوك ماتوا دونك، وإلا يروك تقعد بهم أسباب شتى فلا يأتوك»[9]، فتصدر إبراهيم قيادة جيشه، ويبدوا أنّه أراد أن يكون وجوده شخصياً عامل تحفيز للقيام بثورة داخلية، فيصبح أبو جعفر بين فكي كماشة، إضافة إلى رغبته الشّخصية بالانتقام لمقتل أخيه على أمل الظّفر بأبي جعفر المنصور، فسار إبراهيم بقواته إلى أن وصل إلى باخمري[10]، فعسكر فيها مقابل عيسى بن موسى[11].

وفي يوم «٢٥» ذي القعدة سنة «١٤٥هـ»، اشتبك الطّرفان، فتمكن إبراهيم من تحقيق بعض النّصر على جيش عيسى بن موسى[12]، فعمد أبو جعفر بعد وصول أنباء الهزيمة إلى إعداد الدّواب للهرب إلى الرّي[13]، إلا أنّ نتيجة المعركة في النّهاية كانت لصالح أبي جعفر بعد وصول الإمدادات الّتي طلبها[14]، وكان مقتل إبراهيم بن عبد الله يوم الاثنين «٢٥» ذي القعدة سنة «١٤٥هـ»، وأرسل عيسى بن موسى برأس إبراهيم إلى أبي جعفر المنصور ليلة الثّلاثاء[15]، ولما رفع الرّأس بين يدي المنصور تمثل قائلاً:

فألقت عصاها واستقرت بها النّوى
كما قر عيناً بالإياب المسافر[16]

ثمّ أمر بنصب رأس إبراهيم بن عبد الله بالسّوق ليشاهده أهل الكوفة، وكأنّه أراد أن يقول لهم هذا مصير كلّ من يتحدى سلطاني، ويعرض عن أمري، وبعد الفراغ من أمر إبراهيم، توجه أبو جعفر المنصور إلى أهل الكوفة، ليطلق العنان للسانه، فصعد المنبر وخطب خطبة شديدة اللهجة، أفصحت عما يكنه المنصور من تحامل على الكوفة وأهلها، وأنّبهم تانيباً شديداً، وكيف لا يصدر منه ذلك والكوفة وأهلها استحوذوا على نصف تفكير أبي جعفر، والنّصف الآخر استحوذ عليه محمّد وأخوه إبراهيم، فقد كان جل هم المنصور هو المحافظة وبكلّ الطّرق على الكوفة وكبت أهلها، فتوجه أبو جعفر إلى أهل الكوفة قائلاً: «يا أهل الكوفة عليكم لعنة الله، وعلى بلد أنتم فيه، للعجب ببني أمية وصبرهم عليكم، كيف لم يقتلوا مقاتليكم ويسبوا ذراريكم، ويخربوا منازلكم سبأية خشبية، فمن قائل يقول: جاءت

(١) انظر: الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٢٣٥- ٢٥٦.
(٢) الطّبري، تاريخ، ٦٣٢/٧.
(٣) الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٢٤٠، الرّفاعي، روضة الأعيان، ص١٨٧.
(٤) الطّبري، تاريخ، ٦٣٢/٧، الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٩٥.
(٥) الطّبري، تاريخ، ٦٣٩/٧.
(٦) الأحواز: تسمية عربية أصلية أطلقها العرب على هذا الإقليم قديماً ثمّ أبدلته الفرس بعدئذ، أمّا موقعها فهي تقع بين البصرة وبلاد فارس، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ٢٨٤/١- ٢٨٥، حسن، سهيلة مزبان، الأحواز من التّحرير حتّى نهاية العصر الأموي «١٧هـ- ١٣٢هـ»، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد ١٩٨٨، ص١٠.
(٧) الطّبري، تاريخ، ٦٣٧/٧- ٦٣٨، ابن الأثير، الكامل، ١٧٠/٥- ١٧١.
(٨) انظر: المبرد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد النّحوي «ت: ٢٨٥هـ»، الكامل في اللغة والأدب، ط القاهرة ١٣٥٥هـ، ١٥١/١، الطّبري، تاريخ، ٦٣٨/٧.
(٩) الطّبري، تاريخ، ٦٤٢/٧- ٦٤٣، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ١٧٣/٥.
(١٠) باخمري: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب، ياقوت، معجم البلدان، ٣١٦/١.
(١١) الطّبري، تاريخ، ٦٤٤/٧، ابن الأثير، الكامل، ١٧٣/٥.
(١٢) الطّبري، تاريخ، ٦٤٥/٧، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٥٣/٣.
(١٣) اليعقوبي، تاريخ، ١١٥/٣، الطّبري، تاريخ، ٦٤٧/٧، الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٢٣٠.
(١٤) انظر: الطّبري، تاريخ، ٦٤٦/٧- ٦٤٧، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٥٣/٣.
(١٥) الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٢٣٢.
(١٦) الطّبري، تاريخ، ٦٤٨/٧، الأزدي، تاريخ الموصل، ص١٨٩، الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٢٣٥.

الملائكة، وقائل يقول جاء جبريل، وهو يقول أقدم حيزوم، ثمّ عمدتم إلى أهل هذا البيت وطاعتهم حسنة فأفسدتموهم، فالحمد لله الّذي جعل دائرة السّوء عليكم، أمّا والله يا أهل المدرة الخبيثة لأن بقيت لكم لأذلتكم»[1].

وخطبة أبي جعفر هذه خلطت الأوراق، ونقضت فعلياً ما ذهب إليه أخوه الخليفة الأوّل أبو العبّاس السّفاح وعمّه داود بن علي، من التّأكيد على عمق العلاقة بين العبّاسيين وأهل الكوفة، وذلك من خلال خطبتيهما في المسجد الجامع، غداة إعلان الخلافة العبّاسية وتنصب السّفاح كأوّل خليفة على أرض الكوفة، وباعتقادنا إنّ الإجراءات الأمنية الصّارمة والمشددة الّتي فرضها المنصور على الكوفة وأهلها بعد إعلان محمّد وإبراهيم لثورتيهما، وما تناول به أهل الكوفة بهذه الخطبة، كان لها الدّور الكبير في ترسيخ الاعتقاد في نفوس الكوفيين أنّهم أخطؤوا بالتّعاون والتّعامل مع العبّاسيين، مما فتح الباب على مصراعيه لتكون الكوفة نفسها أرض معركة ومعارضة مسلحّة ابتداء من عصر المأمون «١٩٨هـ- ٢١٨هـ» وحركة أبي السّرايا وصولاً إلى عدد من الحركات العلوية الّتي رفعت شعار المعارضة للدولة.

المبحث الخامس

الحركات العلوية

لم يؤشر التّاريخ، حتّى أوائل سنة «١٣٢هـ» ظهور الكلمتين «العبّاسيين» و«العلويين»، بل كان هناك تعبير يشمل هؤلاء وأولئك، ذلك هو «بنو هاشم» أو «آل البيت»[2].

فقد كانت العلاقات بين العبّاسيين والعلويين في صدر الإسلام وطيلة عهد الحكم الأموي، علاقات وئام وصفاء ووحدة الهدف من أجل التّخلص من الحكم الأموي، ففي زمن النّبي(ﷺ)، كان العبّاس بن عبد المطلب من أنصار الإمام علي(عليه السلام)، ومن المؤيدين في استخلافه بعد وفاة النّبي(ﷺ)، لأنّ العبّاس كان يرى أنّ الخلافة من حق بني هاشم بعد وفاة النّبي، وعرض على الإمام علي(عليه السلام) مبايعته بالخلافة، لكن الإمام رفض ذلك حفاظاً على وحدة صفوف المسلمين[3]، وبعد أن تولى الإمام علي(عليه السلام) الخلافة كان عبد الله بن عبّاس من الأنصار الخلص للإمام، فشاركه في حروبه ضد الخارجين على سلطته الشّرعية[4].

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٦٢/٤، وانظر: مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٥٤/٣.

(٢) شلبي، موسوعة التّاريخ الإسلامي، ٢٧/٣.

(٣) انظر: ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك «ت: ٢١٨هـ»، السّيرة النّبوية، حققها وضبطها وشرحها مصطفى السّقا وآخرون، ط بيروت د. ت، ٣٠٤/٤، اليعقوبي، التّاريخ، ١١٤/٢، ابن سعد، الطّبقات، ٢٤٦/٢.

(٤) انظر: الدّينوري، الأخبار الطّوال، ص١٦٥، ١٧١، ١٧٩، ٢٠٢، ٢٥٢، مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، ص٣٦- ٤١.

وبعد استشهاد الإمام علي(عليه السلام)، لم يظهر العبّاسيون طموحهم في طلب الخلافة مع وجود أبناء علي كالحسن والحسين(عليهما السلام)، ويبدوا ذلك واضحاً من خلال الحديث الّذي دار بين عبد الله بن عبّاس ومعاوية بن أبي سفيان حين جاء خبر وفاة الإمام الحسن(عليه السلام)، قال معاوية لعبد الله: «أصبحت سيّد قومك، قال: أما بقي أبو عبد الله الحسين فلا»[5].

وبعد مقتل الإمام الحسين(عليه السلام)، صار الأمر إلى محمّد بن الحنفية، وقد أوصى هذا بالإمامة من بعده إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفية[6]، وبعد أن أحس أبو هاشم بدنو أجله، بعد فراغه من زيارة الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، أمر أصحابه بالعروج إلى الحميمة حيث يعيش محمّد بن علي بن عبد الله العبّاس، ويقال أنّ أبا هاشم أوصى هناك بالإمامة من بعده إلى محمّد بن علي العبّاسي وأطلعه على أسرار الدّعوة[7]، ولا زال الغموض يكتنف هذه الرّواية ولا يمكننا الجزم بصحتها[8]، وسواء كان هذا التّنازل حقيقاً أم ادعاء، فإنّ العبّاسيين وجدوا في تنازل أبي هاشم حجة يستندون عليها ويرجعون إليها، لأنّ العبّاسيين منذ عهد جدهم العبّاس كانوا يتطلعون إلى نيل الخلافة، لكنهم كانوا لا يصرحون بذلك، لأنّ حق علي وأولاده في نيل الخلافة كان أشهر من حقهم بالخلافة[9]، وأخيراً وبعد جهود مضنية تكللت جهود قطبي هاشم «العبّاسيين والعلويين» بالنّجاح، وقطفت دعوتهم ثمرات نضالها بإعلان قيام الدّولة العبّاسية وبيعة أبي العبّاس السّفاح بالكوفة سنة «١٣٢هـ»[10]، وبقيام دولة بني العبّاس، بدأ صراع شديد حول الخلافة بين العبّاسيين والعلويين بدءاً بعصر المنصور «١٣٦- ١٥٨هـ» الّذي وصف بأنّه «أوّل من أوقع الشّتات بين الطّالبيين والعبّاسيين، وقتل من الطّالبيين من أدرك من أعيانهم وسجن من سجن حتّى هلكوا»[11]، ذلك أنّ العلويين اعتبروا العبّاسيين كالأمويين مغتصبين لحقهم بالخلافة، مما اضطر العبّاسيين إلى مقاومة العلويين مقاومة شديدة، قتلاً، وحبساً، وتشريداً حتّى جاوزوا الأمويين في قساوتهم[12]، ذلك أنّ العبّاسيين كانوا يدركون

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ٢٢/ ٢١٤، مؤلف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسية، ص٤٣.

(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤٧٥/٤- ٤٧٦.

(٧) ابن قتيبة، الإمامة والسّياسة، ١٣١/٢، المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص٢٩٢.

(٨) أمين، الدّعوة العبّاسية، ص١٠.

(٩) أدهم، علي، أبو جعفر المنصور، ط١ مصر ١٩٦٩م، ص٢٩.

(١٠) انظر ذلك تفصيلاً على الصّفحات: ٤- ١٩ من هذه الدّراسة.

(١١) الحسيني، أبو فضل محمّد الكاظم بن أبي الفتوح «ت: ٨٧٥»، مخطوط النّفحة العنبرية في أنساب خير البرية، مخطوط مصور في مكتبة الأخ عمار نصار، ص٦٧، وانظر: السّيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦١.

(١٢) فلوتن، فان، السّيادة العربية، ترجمة حسن، إبراهيم حسن، ومحمّد زكي إبراهيم، ط١ مصر ١٩٣٤م، ص١٣٣.

جيداً خطر العلويين على الخلافة بسبب تأييد كثير من النّاس لهم خاصة رجال العلم وأهل الورع والتّقوى[1].

وابتداءً من عصر المأمون «١٩٨- ٢١٨هـ» عادت الكوفة من جديد لتتزعم حركة المعارضة للدولة القائمة وتشهد أرضها عدداً من الحركات الّتي قام بها العلويون ضد سياسة العبّاسيين وأوّل هذه الحركات هي حركة أبي سرايا:

١- حركة أبي السّرايا:

خلفت الحرب الأهلية الّتي دارت بين الأمين والمأمون، والّتي انتهت لصالح المأمون سنة «١٩٨هـ»[2]، انحلالاً داخلياً وأدت إلى انتشار الفوضى وعدم الاستقرار مما فسح المجال لكلّ طالب حق أو متذمر لإظهار نواياه، وكانت الشّيعة إحدى هذه العناصر الّتي استغلت اضطراب الأوضاع الدّاخلية وتفرق البيت العبّاسي واضطراب حبل الأمن، فقامت بعده ثورات في أقاليم مختلفة من الحجاز والعراق واليمن وكانت حركة أبي السّرايا من أكبر تلك الحركات وأخطرها وهددت بغداد، فقد شاع في العراق غلبة الفضل بن سهل على المأمون، وقيام الأخير بإبعاد طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وعدم مكافاتهما على ما أبديا من جهود لمناصرته في حربه مع أخيه الأمين، حيث أمر طاهر بالتّوجه إلى خراسان، هذا في الوقت الّذي نال فيه أبناء سهل -الفضل والحسن- أعظم ولايات الدّولة العبّاسية، فقد نال الأوّل العراق ونال الثّاني خراسان[3]، فانتهزت العناصر لسلطة الخليفة بما فيهم العلويون هذا الوضع المتأزم، فاندفعوا في خطوات متواصلة نحو الثّورة، وقبل الخوض في تفاصيل حركة أبي السّرايا، لا بد لنا أن نتعرف بعض الشّيء عن شخصية أبي السّرايا وعن الأسباب الّتي دفعته للقيام بحركته وعن الدّور الّذي لعبه ابن طباطبا بتلك الحركة.

في حقيقة الأمر إنّ الغموض ما زال يكتنف شخصية أبي السّرايا ولا تعطي المصادر الّتي بين أيدينا معلومات دقيقة وواضحة عن شخصية أبي السّرايا قبل حركته، وتكتفي بالقول بأنّه السّري بن منصور، من ولد هاني بن قبيصة بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن دهل بن شيبان[4]، ويذكر الأزدي أنّه كان رجلاً أعرابياً في الجزيرة من أهل رأس عين ومنزله كان بها[5]، ويذكر ابن خلدون أنّه من تميم بالجزيرة[6]، أمّا سبب تسميته بأبي السّرايا، فقد سكتت الرّوايات عنه، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنّه كان له أتباع يبلغ عددهم عدد السّرايا، السّرية هي الّتي تخرج بالليل وعدد أفرادها ما بين الثّلاثمئة نفر إلى الخمسمئة[7].

وكانت بداية لمعان اسمه بعد التحاقه بجيش يزيد بن مزيد الشّيباني الّذي أرسله إلى أرمينية لحرب الخرمية[8]، وفي الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون كان إلى جانب الأمين وحارب جيش هرثمة بن أعين الّذي تقابل مع جيش أحمد بن مزيد الشّيباني، ولكن أبا السّرايا بدل رأيه وانحاز مع «٢٠٠» من أتباعه إلى المأمون ومنح لقب أمير[9].

ويعد انتهاء الحرب الأهلية بانتصار المأمون نقص هرثمة بن أعين من أرزاق أبي السّرايا وأرزاق أتباعه، فغضب واستأذن للحج فأذن له، وأعطاه عشرين ألف درهم ففرقها في أصحابه وتواعدوا على اللقاء في عين التّمر، فأخذوا عامل عين التّمر وقسموا أمواله وقد علم هرثمة بما آلت إليه حال أبي السّرايا من عودته إلى حياة النّهب والسّلب، فأرسل إليه جيشاً تمكن أبو السّرايا من هزيمته، فسار إلى دقوقا[10] ثمّ إلى الأنبار، فنهب المدينة ثمّ قصد الرّقة[11] ومر بطوق بن مالك الثّعلبي فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيساً بعصبية ربيعة، حتّى تمكن من إحراز النّصر فانقادت قيس إلى طوق بن مالك[12].

أمّا بالنّسبة لشريك أبي السّرايا بالحركة وهو محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي

(١) الشّبيبي، محمّد رضا، مؤرخ العراق ابن الفوطي، ط بغداد ١٩٥٠م، ٤٢/١.

(٢) ملخصها: أنّ الفضل بن الرّبيع كما تشير أغلب المصادر زين للخليفة الأمين بخلع أخيه المأمون والبيعة لعيسى بن محمّد الأمين من بعده بالخلافة، والّذي أدى إلى قيام الحرب بين الأخوين فيما بعد، ثمّ إنّ الحرب مرت بدورين: الدّور الأوّل الدّعور الدّبلوماسي والّذي انتهى سنة «١٩٥هـ»، والثّاني العسكري الّذي انتهى بمقتل الأمين سنة «١٩٨هـ»، للمزيد من المعلومات انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص٣٨٠، الطّبري، تاريخ، ٦/١١، ٧٧- ٧٧٧، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٩٠ فيما بعد، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٢٢٣/١٠.

(٣) انظر: اليعقوبي، تاريخ، ١٧٥/٣، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٤/٣، ابن الأثير، الكامل، ٤١٦/٥.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ١٧٣/٣، الطّبري، تاريخ، ٥٢٨/٨، المسعودي، مروج الذّهب، ٢٨/٤.

(٥) تاريخ الموصل، ص٣٣٤، المقدسي، البدء والتّاريخ، ١٠٩/٦.

(٦) العبر، ٢٤٢/٣.

(٧) الشّكرجي، نعيمة عبد الكريم، ثورة أبي السّرايا، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد ١٩٧١م، ص٧٤.

(٨) الخرمية، فرقة اتخذت اسمها من الكلمة الفارسية خرم ومعناها مقبول على أساس أنّ أتباعها يعدون كلّ مقبول جائز شرعاً، والأرجح أنّ الاسم مشتق من خرم وهي ناحية بأدربيل، لعل الفرقة قد نشأت فيها وأنّ أبناءها نشطوا بعد مقتل أبي مسلم الخراساني، انظر: الشّهرستاني، الملل والنّحل، ١٥٦١/١- ١٥٢.

(٩) انظر: ابن الأثير، الكامل، ٤١٦/٥.

(١٠) دقوقا: مدينة بين أردبيل وبغداد معروفة، ياقوت، معجم البلدان، ٤٥٩/٢.

(١١) الرّقة: إحدى مدن الجزيرة الفراتية تقع شرقي الفرات، خصبة كثيرة الأشجار والمياه، الاصطخري، المالك والمسالك، ص٥٣.

(١٢) ابن خلدون، العبر، ٣٧٢/٣- ٣٧٣.

طالب(عليه السلام)، المعروف بابن طباطبا، فقد كان لديه قبل لقائه مع أبي السّرايا مشروع ثورة بالجزيرة لكنه لم يرَ النّور، فقد سار من الحجاز إلى الجزيرة بعد لقائه مع نصر بن شبث العقيلي، الّذي أقنعه بالقدوم إلى الجزيرة وإعلان الثّورة هناك، لكن الظّروف لم تخدمه وأصيب بخيبة أمل لموقف أهل الجزيرة من دعوته وكرههم لأهل بيته وقد وصفهم الأصفهاني قائلاً: «إنّ جميع هذا البلد أعداء لآل أبي طالب»[1].

وفي طريق عودته إلى الحجاز التقى أبي السّرايا بالرّقة[2]، الّذي كان هو الآخر قد أصيب بإحباط وخيبة أمل نتيجة لعدم تقدير جهوده العسكرية، وإنقاص مُخصصاته العسكرية وبعد اللقاء وجهاً لوجه، تلاءمت ميول الطّرفين نحو الجنوح إلى العصيان والتّمرد على الدّولة وسلطة الخليفة، ويذكر المؤرخون أنّ السّبب الّذي دفع أبا السّرايا نحو الاتفاق مع ابن طباطبا يعود إلى ما لحق به من غبن وعدم تقدير جهوده العسكرية فأشاروا إلى «أنّ أبا السّرايا كان من رجال هرثمة بن أعين فمطله بأرزاقه وأخره بها، فغضب أبو السّرايا من ذلك ومضى إلى الكوفة فبايع محمّد بن إبراهيم»[3]، فتم الاتفاق بين الطّرفين على الالتقاء بظاهر الكوفة للقيام بالثّورة على أرضها، ويرى الدّكتور فاروق عمر «إنّ أبا السّرايا وجد في ابن طباطبا الرّجل المناسب الّذي ينفس عن ميوله العلوية الظّاهرية من جهة ونفسيته البدوية المتمردة من جهة، وطموحه من جهة ثالثة»[4].

والحقيقة إنّ مسالة إيمان أبي السّرايا بالقضية العلوية أو إنّ تشيعه كان له الأثر الكبير في دفع أبي السّرايا للاتفاق مع ابن طباطبا، هي مسالة غامضة، فاغلب المصادر الّتي بين أيدينا لا تمدنا بمعلومات أكيدة تؤكد على أنّ أبا السّرايا كان مدفوعاً بشعور مذهبي، وينفرد الأصفهاني عن بقية المؤرخين واصفاً أبا السّرايا: «انّه كان علوي الرّأي ذا مذهب في التّشيع»[5]، ولا يمكننا الجزم بحصة هذا الرّأي لعدم وجود ما يعضده في المصادر الأخرى.

أمّا عن الدّور الّذي احتله ابن طباطبا في أحداث تلك الحركة، فهناك تضارب في المصادر فبعضها يشير على أنّه هو البادي بالثّورة وما أبو السّرايا إلا رجل من رجالاته، فيرى الطّبري قائلاً: «خرج بالكوفة محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن طباطبا وكان القيم بامره في الحرب وتدبيرها وقيادة جيوشه أبا السّرايا..»[6]، أي إنّ الطّبري يشير إلى أنّ أبا السّرايا مجرد قائد للداعي العلوي، ويقول الأزدي: «خرج محمّد بن إبراهيم.. وكان القيم بامره رجل أعرابي من بني شيبان يكنى أبا السّرايا»[7]، ويؤيد المقدسي ما ذهب إليه الأزدي أنّ أبا السّرايا لا يتجاوز كونه أعرابياً[8]، ويذهب ابن الأثير وابن كثير[9] إلى تعضيد رأي الطّبري كون أبي السّرايا لا يزيد على قائد خرج بامر ابن طباطبا.

أمّا الأصفهاني فإنّه يجعل أبا السّرايا الزّعيم الحقيقي للثورة، فيذكر إنّ النّاس من أهل الكوفة عندما اجتمع بهم ابن طباطبا تواعدوا على الخروج منتظرين ظهور أبي السّرايا ويتوقعونه فلا يرون له أثراً مما أثار حفيظتهم فاندفعوا في ثورة لإهانة محمّد بن إبراهيم فيذكر الأصفهاني: «وشتمه بعضهم ولاموا محمّد بن علي على الاستعانة به، واغتم محمّد بن إبراهيم لتاخره، فبينما هو كذلك إذ طلع عليهم من نحو الجرف علمان أصفران وخيل فتنادى النّاس بالبشارة، فكبروا ونظروا فإذا هو أبو السّرايا ومن معه فلما أبصر محمّد بن إبراهيم ترجل وأقبل إليه وانكب عليه واعتنقه محمّد»[10]، ويبدو واضحاً أنّ الأصفهاني يرسم هالة كبيرة حول شخصية أبي السّرايا، ويقدمه لنا على أنّه الزّعيم الحقيقي للثورة ويسند له الدّور الأكبر في أحداثها، بإشارته أنّه ترجل عندما رآه وذهب إليه فاعتنقه ومن المؤرخين الّذين أشاروا إلى أولوية أبي السّرايا في إعلان الثّورة اليعقوبي[11]، والمسعودي[12]، اللذان يجعلان أبا السّرايا أوّلاً عندما يذكر خبر الثّورة ويجعلان محمّد بن إبراهيم وكأنّه قد صحبه في تلك الحملة فقط، فهما لا يتطرقان إلى قيام ابن طباطبا ثمّ التقائه بأبي السّرايا، ويجعلان خروج أبي السّرايا نقطة البداية، ويؤيد الدّوري ذلك قائلاً: «ويظهر أنّ أبا السّرايا كان هو القائد الحقيقي للثورة، أمّا العلوي فكان شخصية ثانوية معنوية بجنبه»[13]، كما يذهب

(١) مقاتل الطّالبيين، ص٣٤٤- ٣٤٥.

(٢) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٤/٣، ابن خلدون، العبر، ٢٤٣/٣.

(٣) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٨٧- ٣٨٨، الطّبري، تاريخ، ٥٢٩/٨، ابن الأثير، الكامل، ٤١٧/٥.

(٤) الخلافة العبّاسية، ص١٤٩- ١٥٠، سياسة المأمون اتجاه العلويين «القسم الأوّل- الثّورات العلوية في عهد المأمون»، مجلة آداب المستنصرية، العدد الثّالث، ١٩٧٢م، ص٤٣٣.

(٥) مقاتل الطّالبيين، ص٣٤٦.

(٦) تاريخ، ٥٢٨/٨.

(٧) تاريخ الموصل، ص٣٣٤.

(٨) البدء والتّاريخ، ١٠٩/٦.

(٩) الكامل، ٤١٦/٥، البداية والنّهاية، ٢٢٤/١٠.

(١٠) مقاتل الطّالبيين، ص٣٤٧- ٣٤٨.

(١١) يقول اليعقوبي «وثب الأصفر المعروف بأبي السّرايا بالكوف.. ومحمّد بن إبراهيم العلوي»، تاريخ، ١٧٣/٣.

(١٢) يقول المسعودي « وفي سنة تسع وتسعين ومئة خرج أبو السّرايا.. ومعه محمّد بن إبراهيم»، مروج الذّهب، ٢٨/٤.

(١٣) العصر العبّاسي الأوّل، ص٢٠٦.

الدّكتور فاروق عمر إلى اعتبار أبي السّرايا هو الزّعيم الحقيقي للحركة، وما وجود ابن طباطبا إلا وجوداً معنوياً[1].

ومما تقدم نستطيع القول إنّ المصلحة كانت هي العامل الأكبر في التّوفيق بين طموحات أبي السّرايا ومحمّد بن طباطبا، فكلّ واحد منهما وجد في الآخر ما يسد به نقصه، فابن طباطبا كان يحتاج إلى القوة العسكرية لاستثمار اسمه ونسبه، وأبو السّرايا من جانبه كان يحتاج إلى اسم ابن طباطبا لإضفاء صفة شرعية على تمرداته العسكرية، وخلاصة القول إنّ أبا السّرايا كان الزّعيم غير المتوج لهذه الحركة والقائد الفعلي والمخطط لعملياتها وما وجود ابن طباطبا في المقدمة إلا وسيلة إعلامية لكسب الأتباع عن طريق العزف على نغمة التّعاطف مع أهل البيت، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء أبي السّرايا الّذي كان يمتلك من القوة ما يمكنه من إعلان نفسه رسمياً كقائد أعلى للحركة.

أمّا مراحل تطور الحركة، فبعد لقاء الرّقة الّذي جمع بين الاثنين، انصرف ابن طباطبا متوجهاً إلى الكوفة لتهيئة الأجواء واستغلال نسبه العلوي لاستنهاض الكوفيين وحملهم على المشاركة بالثّورة المرتقبة، وبالفعل فقد استطاع ابن طباطبا أن يهيئ أرضية صالحة ويكسب الكثير من الأتباع[2]، وكان يدعو إلى الرّضا من آل محمّد والعمل بالكتاب والسّنة[3]، فوصل أبو السّرايا في الموعد المتفق عليه مع ابن طباطبا، واستطاع أن يسيطر وبسهولة على الكوفة دون إراقة دماء وإلى ذلك يشير الطّبري «وأخذ الكوفة واستوسق له أهلها بالطّاعة، وأقام محمّد بن إبراهيم بالكوفة وأتاه النّاس من نواحي الكوفة والأعراب وغيرهم»[4] وكان ذلك في «١٠» جمادى الآخرة سنة «١٩٩هـ»[5].

فكانت هذه الخطوة الأولى في حركة أبي السّرايا، وهي فرض السّيطرة على الكوفة لتكون مركزاً للحركة، وتنصيب ابن طباطبا بمثابة الزّعيم الرّوحي لهذه الحركة، ولم يقم والي الكوفة العبّاسي بأي محاولة تذكر لمنع أبي السّرايا من السّيطرة على الكوفة[6]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عدم وجود العدد الكافي من الجند العبّاسي للدفاع عن الكوفة، وهذا ما يقودنا إلى القول أنّ الكوفة لم تعد تحظى باهتمام الحكومة في الحيلولة دون فسح المجال لها في المشاركة بالأحداث السّياسية كما فعل أبو جعفر المنصور أثناء ثورتي محمّد وإبراهيم ابني عبد الله المحض، الّذي فضّل أن يكون - كما رأينا- قريباً من الكوفيين لتفويت الفرصة عليهم في المساهمة بأي عمل ضد الدّولة.

وبعد دخول أبي السّرايا إلى الكوفة تجمعت المقاومة العبّاسية حول شخصية الفضل بن عيسى بن موسى الّذي أعلن رفضه لبيعة ابن طباطبا، ودافع عن نفسه مع أتباعه ولكنه سرعان ما استسلم ونهبت داره، وأخذت ما فيها من الأموال والجواهر[7]، وبعد وصول الأنباء إلى الحسن بن سهل -أمير العراق- بسيطرة أبي السّرايا على الكوفة، أرسل قوة عسكرية بلغ تعدادها عشرة آلاف جندي، بقيادة زهير بن المسيب فتمكن أبو السّرايا من تحقيق النّصر وأخذ ما كان مع الجيش من المال والسّلاح والدّواب[8]، وقد أدى هذا إلى اتساع نفوذ أبي السّرايا وإلى تعاظم قوته، إذ استطاع أن يدحر قوة عبّاسية ثانية أرسلها الحسن بن سهل بقيادة عبدوس بن محمّد بن أبي خالد المروزي قوامها أربعة آلاف فارس، وقد استطاع أبو السّرايا أن يحرز النّصر، ولم يفلت أحد من جيش عبدوس وكانوا بين قتيل وأسير[9].

وأدت الانتصارات المتلاحقة الّتي حققها أبو السّرايا على الجيوش العبّاسية إلى انتشار الطّالبيين في البلاد[10]، وأيد كثير من البلاد والأقاليم حركة الكوفة بقيادة أبي السّرايا، وللتعبير عن سيطرته وكرمز لاستقلاليته، فإنّ أبا السّرايا عمد إلى ضرب الدّراهم باسمه ونقش عليها «إنّ الله يحب الّذي يقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بينان مرصوص»[11].

وهنا يحدث تطور في حركة أبي السّرايا، فبعد الانتصارات الباهرة الّتي حققها على الجيوش العبّاسية، جاءت الأخبار تنعى وفاة ابن طباطبا، وقد انقسم المؤرخون إلى قسمين في تعليل الأسباب الّتي أدت إلى وفاة ابن طباطبا، القسم الأوّل أشار إلى أنّ وفاة ابن طباطبا كان عن طريق السّم فيشير الطّبري إلى أنّ موت ابن طباطبا كان غير متوقع، وربما كان بسبب السّم الّذي

(١) سياسة المأمون اتجاه العلويين، ص٤٣٢.

(٢) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٣٤٦.

(٣) الطّبري، تاريخ، ٥٢٨/٨، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٢٢٤/١٠، ابن خلدون، العبر، ٢٤٢/٣.

(٤) الطّبري، تاريخ، ٥٢٩/٨، ابن الأثير، الكامل، ٤١٧/٥.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٤١٦/٥.

(٦) ابن خياط، تاريخ، ٥٠٦/٢.

(٧) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٣٤٨- ٣٤٩، ابن خلدون، العبر، ٢٤٢/٣.

(٨) اليعقوبي، تاريخ، ١٧٥/٣، الأزدي، تاريخ الموصل، ص٣٣٥، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٦/٣.

(٩) اليعقوبي، تاريخ، ١٧٥/٣، الأزدي، تاريخ الموصل، ص٣٣٥.

(١٠) الطّبري، تاريخ، ٥٣٠/٨، ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمّد بن يعقوب «ت: ٤٢١هـ»، تجارب الأمم، مطبوع مع كتاب العيون والحدائق، ط بغداد د. ت، ٤٢١/٦، ابن الأثير، الكامل، ٤١٨/٥.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٥٣٠/٥، ابن الأثير، الكامل، ٤١٨/٥، ابن خلدون، العبر، ٢٤٣/٣.

دس له من قبل أبي السّرايا، إذ أنّ ابن طباطبا كان قد أنّب أبا السّرايا على ما فعله بالجيش العبّاسي ومنعه من الاحتفاظ بالغنائم والأسلاب الّتي أخذها من الجيش العبّاسي بعد انتصاره عليه، ويؤيد كلٌ من ابن الأثير وأبي الفدا وابن كثير، ما ذهب إليه الطّبري باتهام أبي السّرايا مباشرة بسم ابن طباطبا[1]، في حين ينفرد الأصفهاني عن غيره من المؤرخين جاعلاً وفاة ابن طباطبا نتيجة طبيعية لمرض ألم به، مع إشارته إلى تأنيب ابن طباطبا لأبي السّرايا على القسوة الّتي اتبعها مع الجيش العبّاسي المنهزم[2]، في حين أنّ هناك بعض المصادر تلتزم جانب الحياد ولا تعطي صورة دقيقة عن أسباب وفاة ابن طباطبا فيكتفي كلٌ من الأزدي[3]، والمسعودي[4]، وابن خلدون[5]، بذكر وفاة ابن طباطبا فقط دون الإشارة إلى مسألة سمّه من قبل أبي السّرايا.

وبناء على ما تقدم، يمكننا أن نلتمس بعض خيوط الحقيقة، ففي البداية لنتفق مع الأصفهاني أنّ ابن طباطبا كان مريضاً فعلاً، ولكن الاحتمال كبير في تحميل أبي السّرايا مسؤولية قتل ابن طباطبا، فأبو السّرايا رجل عسكري والرّأفة بالعدو من وجهة نظره لا تتلاءم مع مفاهيمه العسكرية القائمة على القتل والسّلب والنّهب، إذ كان رده على ابن طباطبا عندما أنبه على ما فعله بالجيش العبّاسي «كان هذا تدبير الحرب»[6]، ويبدو أنّ أبا السّرايا قد شعر أنّ هناك تدخلاً من قبل ابن طباطبا في صلاحياته ومسؤولياته العسكرية وقد يكون قادم الأيّام ما لا يرغب به أبو السّرايا لذلك دبر عملية قتله.

وعلى أية حال فإنّ أبا السّرايا أعلن نبأ موت ابن طباطبا، وعمل بوصيته فرشح علي بن عبد الله العلوي، لكن هذا رفض الأمر لانشغاله بالعبادة وبعده عن السّياسة، واقترح بيعة محمّد بن محمّد بن زيد العلوي الّذي كان لا يزال حدثاً صغيراً، وقد قبل أبو السّرايا ومن معه بيعة محمّد قائلين لعلي بن عبد الله «رضانا من رضاك وقولنا من قولك»[7].

أمّا رواية الطّبري فتشير إلى أنّ أبا السّرايا، وهو الّذي تولى ترشيح محمّد بن محمّد بن زيد كي يستبد عليه فيذكر الطّبري «كان أبو السّرايا هو الّذي ينفذ الأمور ويولي من رأى، ويعزل من أحب وإليه الأمور كلّها»[8]، ويؤيد ابن الأثير ذلك قائلاً «فكان الحكم إلى أبي السّرايا»[9]، ويذكر أبو الفدا «وأقام أبو السّرايا غلاماً يقال له ابن زيد من ولد علي بن أبي طالب صوره مكان ابن طباطبا»[10].

وبعد أن تمت البيعة لمحمّد بن محمّد وتوليه أمور الدّعوة، فرق رجاله وعماله على البلاد، فولى إسماعيل بن جعفر الكوفة، وعقد لإبراهيم بن موسى بن جعفر على اليمن، وولى زيد بن موسى بن جعفر الأهواز، وولى العبّاس بن محمّد بن عيسى بن محمّد العلوي البصرة، وولى الحسين بن الحسن الأفطس مكة، وعقد لجعفر بن محمّد بن زيد بن علي والحسين بن إبراهيم على واسط[11].

وأقدم أبو السّرايا على خطوة إعلامية لصبغ حركته بالطّابع الدّيني وترسيخ الاعتقاد في نفوس النّاس بأنّه يطالب بثار أهل البيت، وذلك عندما أقدم على إرسال كسوتين لبيت الله الحرام، فقام مندوبه إلى مكة الحسين بن الحسن الأفطس بإنزال الكسوتين العبّاسيتين وكساها بما بعث به أبو السّرايا، وكان مكتوباً عليهما: «أمر به الأصفر بن الأصفر أبو السّرايا داعية آل محمّد»[12].

وهكذا نرى أنّ الكوفة مركز الحركة وأرضها أخذت تضطلع بدور آخر ذي أهمية كبيرة، وهو تحولها إلى قاعدة نحو امتداد الحركة في العديد من المدن والأقاليم، ومما زاد في خطر هذه الحركة وتطورها، هو أنّها أصبحت تشكل خطراً على بغداد نفسها، خصوصاً بعد أن وصل نفوذ أبي السّرايا إلى نهر الملك وهو لا يبعد إلا أميالاً قليلة عنها، لذلك وجد أمير العراق الحسن بن سهل نفسه في وضع صعب وضعيف تجاه تنامي قوة أبي السّرايا وكيف لا «وأبو السّرايا ومن معه لا يلقون له عسكراً إلا هزموه ولا يتوجهون إلى بلدة إلا دخلوها»[13]، فاضطر الحسن بن سهل إلى التّفكير بالاستعانة بخدمات هرثمة بن أعين، وهذا كان وقتئذ قد سلم ما بين يده من الأعمال إلى الحسن بن سهل وانصرف إلى خراسان، إذا لم يكن الخليفة المأمون «١٩٨- ٢١٨هـ» موفقاً بإكرامه للأركان الأربعة الّتي حققت له النّصر، ففي الوقت الّذي أغدق فيه الامتيازات والمناصب على الفضل بن سهل وأخيه الحسن

(١) تاريخ، ٥٢٩/٨، الكامل، ٤١٧/٥، المختصر في أخبار البشر، ٢١/٢، البداية والنّهاية، ١٠/

(٢) مقاتل الطّالبين، ص٣٥٣.

(٣) تاريخ الموصل، ص٣٣٥.

(٤) مروج الذّهب، ٢٨/٤.

(٥) العبر، ٢٤٣/٣.

(٦) الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٣٥٤.

(٧) انظر: الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٣٥٤.

(٨) تاريخ، ٥٢٩/٨- ٥٣٠.

(٩) الكامل، ٤١٧/٥.

(١٠) المختصر في أخبار البشر، ٢١/٢.

(١١) الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٣٥٥.

(١٢) الطّبري، تاريخ، ٥٣٦/٨، ابن الأثير، الكامل، ٤٢٢/٥.

(١٣) الطّبري، تاريخ، ٥٣١/٨، الأزدي، تاريخ الموصل، ص٣٣٥، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٦/٣.

اللذين يمثلان الجانب الدبلوماسي، فإنّه أجحد حق القائدين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين اللذين كانا يمثلان الجانب العسكري[1].

فبعث الحسن بن سهل إلى هرثمة بن أعين يساله الانصراف إلى بغداد لحرب أبي السّرايا، لكنه رفض في البداية، ثمّ عدل عن رأيه وانصرف إلى بغداد فقدمها في شعبان سنة «١٩٩هـ»، وأخذ يتهيأ للخروج إلى الكوفة مركز الحركة[2]، وهنا بدأ الحسن بن سهل باتخاذ الخطوات الفعلية نحو القضاء على حركة أبي السّرايا، فبعث علي بن أبي سعيد إلى المدائن وواسط والبصرة، وبعد وصول الأخبار بذلك إلى أبي السّرايا وهو متواجد في قصر ابن هبيرة، وجه جيشاً إلى المدائن فملكوها في شهر رمضان سنة «١٩٩هـ»، وتقدم أبو السّرايا ومن معه فنزلوا نهر صرصر مما يلي طريق الكوفة وكان ذلك في شهر رمضان[3]، وبعد حصول عدد من المعارك، كانت نتائجها تصب في خانة جيش الدّولة العبّاسية، اضطر أبو السّرايا إلى التّراجع والتّحصن في الكوفة[4].

وفي داخل الكوفة أقدم محمّد بن محمّد ومن معه من الطّالبيين على نهب دور بني العبّاس وموالليهم وخربوها واستخرجوا الودائع الّتي كانت لهم عند النّاس فاخذوها[5]، وأخذت القوات العبّاسية بالزّحف نحو الكوفة، فحصلت اشتباكات على مشارفها بين قوات أبي السّرايا وهرثمة بن أعين، كان النّصر في بداية الأمر لأبي السّرايا، لكنه خسر نتيجة المعركة في النّهاية[6]، وأخذ هرثمة بن أعين يفتش عن طريق آخر يستطيع من خلاله فك رموز المقاومة الكوفية، فركن إلى الحيلة والدّهاء، وكاتب أهل الكوفة قائلاً لهم: «يا أهل الكوفة علام تسفكون دماءنا ودماءكم؟ إن كان قتالكم إيانا كراهية إمامنا، فهذا المنصور بن المهدي رضا لنا ولكم نبايعه، وإن أحببتم إخراج الأمر من ولد العبّاس فانصبوا إمامكم، واتفقوا معنا ليوم الاثنين نتناظر فيه، ولا تقتلونا وأنفسكم»[7].

وعبثاً حاول أبو السّرايا أن ينبههم إلى حيلة هرثمة وسوء نيته وخطب بأهل الكوفة خطبة شديدة اللهجة اتهمهم فيها بقتل الإمام علي(عليه السلام)، وخذلانهم للإمام الحسين(عليه السلام)، ونكثهم للوعود وتراجعهم عن مواقفهم عندما تشتد المنازلة[8].

ويبدو أنّ سياسة هرثمة هذه قد أتت ثمارها واستطاع أن يشق الصّفوف ويحدث فجوة كبيرة بين أبي السّرايا والكوفيين، فقد فضل أهل الكوفة الرّاحة على الاستمرار بمؤازرة أبي السّرايا، وأصبح الاختلاف في وجهات النّظر حاضراً[9].

ويبدو كذلك أنّ موقف أهل الكوفة هذا قد أثار حفيظة أبي السّرايا ومن معه فاثاروا الفوضى في المدينة ووثب محمّد بن محمّد بن زيد ومن معه من الطّالبين على دور بني العبّاس ودور مواليهم وأتباعهم فانتهبوها وهدموها وأحرقوها[10]، وهكذا نستطيع القول أنّ أهل الكوفة غدروا بابي السّرايا بعد أن جد الأمر واشتدت المنازلة وتناسوا ما قطعوه من عهود، لذلك قرر ترك الكوفة بعد أن خذلته وخرج منها يوم «١٦» محرم سنة «٢٠٠هـ»، مع ثمنمئة فارس ومعه محمّد بن زيد العلوي فنزل القادسية[11].

وبهروب أبي السّرايا يدخل هرثمة بن أعين إلى الكوفة، فيؤمن أهلها ولا يعرض لأحد منهم[12]، ومن القادسية رحل أبو السّرايا إلى واسط الّتي وقعت بايدي الجيش العبّاسي فانحرف عنها، وأخذ ينتقل من مكان إلى آخر هو ومن معه حتّى تم إلقاء القبض عليهم في جلولاء، فحملوا إلى الحسن بن سهل في النّهروان، فاصدر هذا أوامره بقتل أبي السّرايا، فنفذ الأمر يوم الخميس «١٠» ربيع الأوّل سنة «٢٠٠هـ»، ويبعث بجسده إلى بغداد حيث يصلب نصفين على الجسر في كلّ جانب نصف[13].

ويروى أنّ أبا السّرايا كان شديد الجزع عند مقتله، ولم يُرَ أجزع منه وقد طيف برأسه في الأقاليم، وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر[14].

أمّا عن مصير محمّد بن محمّد بن زيد العلوي، فتتفق معظم المصادر على أنّه قد أرسل من قبل الحسن بن سهل إلى المأمون، وقد عفا الخليفة عنه بعد أن رأى حداثة سنه وقال له: «لا خوف

(١) عمر، الخلافة العبّاسية، ص١٤٨، سياسة المأمون اتجاه العلويين، ص٤٣١.
(٢) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٦/٣- ٣٤٧، ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٤٢١/٦- ٤٢٢.
(٣) الطّبري، تاريخ، ٥٣١/٨، ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٤٢٢/٦.
(٤) انظر: الطّبري، تاريخ، ٥٣١/٨.
(٥) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٧/٣، ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٤٢٢/٦.
(٦) الطّبري، تاريخ، ٥٣٣/٨، وانظر: الأصفهاني، مقاتل الطّالبين، ص٣٦١- ٣٦٣.
(٧) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٣٦٣.
(٨) انظر: الخطبة بالكامل في: الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٣٦٣- ٣٦٤.
(٩) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٣٦٣.
(١٠) الطّبري، تاريخ، ٣٥١/٨، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٧/٣، ابن الأثير، الكامل، ٤١٨/٥- ٤١٩.
(١١) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٧/٣، ابن الأثير، الكامل، ٤٢١/٥.
(١٢) اليعقوبي، تاريخ، ١٧٥/٣، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٢١/٢.
(١٣) انظر: الطّبري، تاريخ، ٥٣٤/٨- ٥٣٥، الأزدي، تاريخ الموصل، ص٣٣٨- ٣٣٩، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٤٧/٣.
(١٤) ابن خياط، تاريخ، ٥٠٨/٢، اليعقوبي، تاريخ، ١٧٥/٣، ابن الأثير، الكامل، ٤٢١/٥.

عليك لعن الله من غرك»[1]، وينفرد الأصفهاني عن بقية المؤرخين ويتهم المأمون بقتل محمّد عن طريق سمّه.

وهكذا وضع قتل أبي السّرايا حداً لاستقلال الكوفة وتمردها خلال العشرة أشهر وهي مدة حركة أبي السّرايا من خروجه إلى مقتله، وكان لاحتضان الكوفة لهذه الحركة ومساهمة أهلها الفعالة في أحداثها، إيذاناً ببداية عهد جديد من العلاقة بين الكوفة ذات الميول العلوية والسّلطة العبّاسية، حيث عادت الكوفة من جديد لتزعم لواء المعارضة للسلطة القائمة، فلم تكن حركة أبي السّرايا إلا فاتحة نحو عدد من الحركات العلوية الّتي احتضنتها الكوفة.

أمّا الأسباب الّتي أدت إلى فشل حركة أبي السّرايا بالكوفة، فتعود وبالدّرجة الأولى بلا شك إلى ميول أهل الكوفة المتقلبة، فبعد أن وقف الكوفيون إلى جانب أبي السّرايا في بداية ثورته وساندوه، سرعان ما نراهم يتخلون عنه بعد أن جدّ الأمر واشتدت المنازلة فنكثوا وعودهم الّتي قطعوها لأبي السّرايا، وهذا ما ليس بغريب عن أهل الكوفة فقد نجح القائد هرثمة بن أعين ببراعته العسكرية ومهارته الدّبلوماسية في إيهام الكوفيين بأنّه راغب حقيقة في اختيار خليفة جديد لهم حسب رغبتهم، فأحدثت رسالة هرثمة الّتي بعثها إلى أهل الكوفة الفرقة والانشقاق في صفوفهم، ولذلك فضلوا الرّاحة على الاستمرار في مساندة أبي السّرايا، وهذا ما دفعه إلى الخروج من الكوفة ومن ثمّ إلقاء القبض عليه وقتله.

ومن النّتائج الكبيرة لحركة أبي السّرايا هي تعيين الإمام علي بن موسى الرّضا(عليه السلام) ولياً للعهد، إذ رأى المأمون أنّ السّبب في قيام الثّورات العلوية هو إبعاد العلويين من الحكم، وحرمانهم من الإسهام في إدارة الدّولة، واستبداد العبّاسيين بالأمر وحدهم في حين أنّ وصول العبّاسيين إلى الحكم كان يعود أكثره إلى العلويين، لهذا ولغيره من الأسباب رأى المأمون أن يمهد الطّريق لإسهام العلويين في الحكم ليأمن جانبهم من جهة، ويحقق الأمن والاستقرار في الدّولة من جهة أخرى[2].

لذلك قرر المأمون مبايعة علي بن موسى الرّضا بولاية العهد وذلك سنة «٢٠١هـ» وبعث إلى الرّضا وهو في مدينة الرّسول من ياتي به إلى خراسان[3]، ثمّ تمت بيعة الرّضا(عليه السلام) وكتب له المأمون عهداً أظهر فيه أحقيته في الخلافة، ثمّ أعلن ذلك أمام رعيته وأمر جنده بطرح السواد، وهو شعار العبّاسيين وأمرهم بلبس ثياب الخضرة[4].

وكان أخذ البيعة للرضا في الكوفة في عهدة العبّاس بن جعفر العلوي، فأجابه بعض الكوفيين ورفض آخرون قائلين له: «إن كنت تدعو للمأمون ثمّ من بعده لأخيك فلا حاجة لنا في دعوتك، وإن كنت تدعو إلى أخيك أو بعض أهل بيتك أو إلى نفسك أجبناك، فقال: أنا أدعو للمأمون ثمّ من بعده لأخي»[5]، فكان ذلك سبباً في انصراف أهل الكوفة عنه، لاعتقادهم بأحقية العلويين دون العبّاسيين الغاصبين، لذلك أخفقت البيعة للرضا عند أهل الكوفة، وهذا ما دفع إبراهيم بن المهدي العبّاسي - بايعه أهل بغداد بالخلافة وخلعوا المأمون بعد بيعته للرضا بولاية العهد[6]- فوجه إليهم سعيد بن السّاجور، وأبو البط وهما في منطقة النّيل[7]، فسار جميعهم نحو قرية شاهي[8]، فلما صاروا عند القنطرة، اعترضتهم قوة علوية بقيادة علي بن محمّد بن جعفر -ابن الثّائر في الحجاز- وأبي عبد الله أخي أبي السّرايا -الثّائر في الكوفة- والتقوا قرب القنطرة[9]، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكان شعار أصحاب إبراهيم بن المهدي «يا إبراهيم يا منصور لا طاعة للمأمون»[10]، وكان عليهم السّواد، وعلى بعض أهل الكوفة الثياب الخضرة ويبدو أنّ أهل الكوفة ملوا القتال، فكاتبوا سعيداً، وطلبوا الأمان للعبّاس بن موسى وأصحابه على أن يخرج من الكوفة، الّتي ساءت أحوالها الدّاخلية واختل فيها الأمن، واستغل الغوغاء ذلك، فسلبوا، ونهبوا، واقتضى الحال أن يعين غسان بن أبي الفرج والياً على الكوفة ليعيد الأمن والاستقرار إليها، بيد أنّه عزل عنها فيما بعد لقتله أخي أبي السّرايا، ثمّ عين بدله ابن أخيه[11].

ويبدو أنّ الحسن بن سهل كان يتحين الفرص للانقضاض على خصمه في الكوفة، فلما رأى اختلال الأمن فيها وجّه إليها أصحابه، فقاتل بهم أصحاب إبراهيم بن المهدي واستولى على ما في عسكرهم وبذلك رجعت الكوفة إلى حوزة المأمون[12].

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٥٥٥/٤، اليعقوبي، تاريخ، ١٧٥/٣، ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحسين «ت: ١٠٨٩هـ»، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، ط٢ بيروت ١٩٧٩م، ٣٥٨/١.

(٢) الشّكرجي، ثورة أبي السّرايا، ص٢٣١.

(٣) المقدسي، البدء والتّاريخ، ١١٠/٦- ١١١.

(٤) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٤٣٦/٦، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٥٠/٣.

(٥) الطّبري، تاريخ، ٥٥٤/٨.

(٦) انظر: أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٢٢/٢- ٢٣.

(٧) النّيل: بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير حفره الحجاج بن يوسف وسماه بنيل مصر، ياقوت، معجم البلدان، ٣٣٤/٥.

(٨) قرية شاهي: موضع قرب القادسية، ياقوت، معجم البلدان، ٣١٦/٣.

(٩) الطّبري، تاريخ، ٥٦٠/٨، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٢٤٨/١٠.

(١٠) ابن الأثير، الكامل، ٤٤٢/٥- ٤٤٣.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٥٦١/٨.

(١٢) المصدر نفسه.

٢- حركة يحيى بن عمر العلوي[١]:

كان خروجه بالكوفة أيّام الخليفة المستعين العبّاسي «٢٤٨- ٢٥١هـ»، سنة «٢٥٠هـ»[٢]، أمّا عن أسباب خروجه، فقد اتفقت المصادر أنّ يحيى بن عمر كان قد قدم خراسان في أيّام المتوكل «٢٣٢- ٢٤٧هـ»، وهو في ضائقة مالية وعليه دين فكلم بعض كبار أصحاب المتوكل في ذلك، فاغلظ له وحبس في سامراء، ثمّ كفله أهله، فاطلق سراحه وغادر سامراء إلى بغداد، وهناك اشتد به الفقر فقرر العودة ثانية إلى سامراء، وكلم بعض أصحاب المتوكل في حاجته فلم يكن جوابهم يختلف عن المرة السّابقة[٣].

فاثّرت هذه الحادثة بعض الشّيء في نفسه، فقرر أن يستغل اسمه ونسبه العلوي في إثارة النّاس، ووقع اختياره على الكوفة -مركز العلويين- لتكون مسرحاً لحركته، فشد الرّحال إليها وعرج في طريقه إلى كربلاء، فزار قبر الإمام الحسين(عليه السلام) فاجتمعت إليه جماعة من الأعراب[٤].

ويبدو إنّ إقدام يحيى بن عمر على زيارة قبر الإمام الحسين(عليه السلام) كانت خطوة ذكية منه للوصول إلى مبتغاه، وذلك بإثارة عواطف من كان معه، وتذكيرهم بمأساة الإمام الحسين(عليه السلام)، وكأنّه أراد بذلك أن يبعث برسالة إلى أهل الكوفة يذكرهم فيها بخطئهم لتركهم نصرة الحسين(عليه السلام).

وبعد الفراغ من زيارة كربلاء، سار قاصداً الكوفة ومعه جملة من أتباعه، ينادون «أيها النّاس أجيبوا داعي الله»[٥].

فبدأ يعزف على نغمة التّعاطف مع أهل البيت(عليهم السلام)، وبالفعل فقد وجد هذا النّداء أصداء طيبة لدى النّاس، فاجتمع إليه الأعراب وناس من أهل الكوفة وصفهم ابن الطّقطقي «بذوي البصائر في التّشيع»[٦].

وبعد أن اطمأن يحيى بن عمر إلى نجاحه في كسب الأتباع، شرع في مهاجمة مؤسسات الدّولة بالكوفة، فكان أوّل ما تعرض له هو بيت المال فلم يجد فيه سوى ألفي دينار وسبعين ألف درهم[٧]، ففرق تلك الأموال على أصحابه[٨]، وألقى القبض على بعض الصّيارفة في الكوفة وأخذ ما كان عندهم من أموال تعود للخليفة[٩].

وكانت الخطوة التّالية أن توجه العلوي الثّائر إلى السّجون وأطلق من كان بها من المساجين وطرد عامل الكوفة عنها[١٠]، فاستحكم أمره على الكوفة وناصره خلق الزّيدية والتفوا حوله[١١]، فخرج يحيى بن عمر من الكوفة إلى سوادها ثمّ قرر العودة إليها فعارضه عبد الرّحمن بن الخطاب الملقب بـ «وجه الفلس» فقاتله قتالاً شديداً، فانهزم عن يحيى فلم يتبعه[١٢]، فدخل يحيى الكوفة من جديد، وعمد إلى إضفاء صفة شرعية على حركته فأخذ يدعو «إلى الرّضا من آل محمّد فاجتمع إليه النّاس واحبوه»[١٣].

والشّيء المهم في هذه الحركة وما جعلها تتميز عن غيرها من الحركات العلوية، أنّه كان لها أنصار داخل بغداد العاصمة نفسها، معلنين ببيعتهم لهذا العلوي الثّائر، مع أنّهم كما تشير المصادر لم يبايعوا أحداً من العلويين من قبل[١٤].

وسواء كان أهل بغداد صادقين في بيعتهم هذه أم لم يكونوا كذلك، فإنّ هذا يعطينا الدّليل الواضح على سوء الأوضاع الّتي كانت تعيشها الخلافة العبّاسية آنذاك، فكانت الأكف تصفق لكلّ خارج على السّلطة كنوع من التّذمر على تلك الأوضاع.

وبعد أن بسط هذا العلوي الثّائر سيطرته على الكوفة، أخذ يشرع في تقوية استعداداته العسكرية لمواجهة محتملة مع قوات الدّولة، الّتي من غير الممكن أن تغض النّظر عن عمله هذا، فبدأ بتحصيل السّلاح وإعداد آلات الحرب وتجميع الرّجال[١٥]، وكما كان متوقعاً فإنّ محمّد بن عبد الله بن طاهي -نائب العراق- أرسل الحسن بن إسماعيل على رأس القوات لمحاربة يحيى بن عمر واستعادة الكوفة[١٦].

فسار هذا حتّى استقر به المقام في قرية شاهي، وهناك عمل الحسن بن إسماعيل على إعادة تنظيم قواته، ومنحها قدراً كبيراً من الرّاحة، وأخذت الإمدادات العسكرية والميرة تتدفق عليه بانتظار المواجهة الحاسمة[١٧].

---

(١) يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(عليهم السلام)، المكنى بأبي الحسين، الطّبري، تاريخ، ٢٦٦/٩.

(٢) الطّبري، تاريخ، ٢٦٦/٩، ابن الوردي، تاريخ، ٣١٦/١، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١١، القلقشندي، مآثر الأناقة، ٢٤١/١.

(٣) الطّبري، تاريخ، ٢٦٦/٩، ابن الطّقطقي، الفخري، ص٣٨٩، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١٠، ابن خلدون، العبر، ٢٨٥/٣.

(٤) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٤٢٠.

(٥) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٤٢٠.

(٦) الفخري، ص٣٨٩.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ١٥٦/٦، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١٠.

(٨) ابن الطّقطقي، الفخري، ص٣٨٩.

(٩) الأصفهاني، مقاتل، ٤٥٤/٣.

(١٠) اليعقوبي، تاريخ، ٢٢١/٣، الطّبري، تاريخ، ٢٦٧/٩.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٢٦٧/٩، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١١.

(١٢) الأصفهاني، مقاتل، ٤٥٤/٣- ٤٥٥، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١١.

(١٣) ابن الأثير، الكامل، ١٥٧/٦، ابن خلدون، العبر، ٢٨٥/٣.

(١٤) الطّبري، تاريخ، ٢٦٨/٩، ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٥٦٨/٦، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١١.

(١٥) ابن الأثير، الكامل، ١٥٧/٦، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١١.

(١٦) اليعقوبي، تاريخ، ٢٢١/٣، ابن خلدون، العبر، ٢٨٥/٣.

(١٧) الطّبري، تاريخ، ٢٦٨/٩.

وهنا وفي تطور جديد للحركة يرتكب يحيى بن عمر العلوي خطأً فادحاً كان له الأثر الأكبر في تقرير مصير حركته، ودل على انعدام شخصيته العسكرية، وما ذاك إلا انصياعه لرغبات ممن لا علم لهم بأمور الحرب، وخصوصاً أتباعه من الزّيدية، الّذين أخذوا يلحون عليه بترك الكوفة ومباغتة قوات الحسن بن إسماعيل، فزحف إليه ليلة الاثنين «١٣» رجب سنة «٢٥٠هـ»، فاشتبك الطّرفان وانهزم أهل الكوفة، وكان أكثرهم بغير سلاح، وأسفرت نتيجة المعركة عن قتل يحيى بن عمر[١].

وهكذا تم القضاء على هذه الحركة والحيلولة دون تحقيق أهدافها، ويمكننا أن نرجع أسباب إخفاقها إلى عدة عوامل، يقف في مقدمتها سوء الإدارة العسكرية، من قبل يحيى بن عمر وخضوعه لأهواء الآخرين، وافتقار هذه الحركة للدقة والتّنظيم فأغلب أهل الكوفة كانوا لا يملكون قطعة سلاح يحاربون ويدافعون بها عن أنفسهم، أضف إلى ذلك أنّ القوات الحكومية كانت على جاهزية عالية للقتال، وبعد تمتعها بالرّاحة والاستقرار، ووصول الإمدادات العسكرية والأموال، والّتي كانت الحافز الأكبر لهم لتحقيق النّصر.

وعلى أية حال فقد فشلت هذه الحركة في تحقيق أهدافها، أمّا عن ردود الأفعال حول مقتل يحيى بن عمر، فإنّ الكوفة ما أن علمت بمقتل الثّائر العلوي حتّى خيم عليها الحزن وضج أهلها بالبكاء والصّراخ والعويل[٢].

ولم يقتصر الأمر على الكوفة، بل تعداها إلى بغداد نفسها، حيث امتعض النّاس هناك لمقتل يحيى بن عمر وشاعت الفوضى في الشّوارع وإلى ذلك يشير الأصفهاني قائلاً: «كان الغوغاء والصّبيان يصيحون في الطّرقات: ما قتل، وما فر، ولكن دخل البر»[٣]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الدّعم الشّعبي الّذي كانت تلقاه حركة يحيى بن عمر من قبل أهل بغداد، ورفضهم لمسالة قتله، وأخذوا يعتقدون أنّه حي وسوف يعود من جديد.

وبعد مقتل يحيى احتز رأسه وبعث به إلى محمّد بن عبد الله بن طاهر وهو ببغداد، فسيره هذا بدوره إلى الخليفة المستعين، فنصب بسامراء لحظة[٤]، ومن سامراء أرسل الرّأس إلى بغداد لينصب بها، فلم يقدر محمّد بن عبد الله على ذلك لكثرة ما اجتمع من النّاس فخاف أن يأخذوه[٥]، مما يدل على ما كان لهذه الحركة من أثر بالغ في النّفوس، وعلى الرّغم من فشلها، وخاصة أهل

(١) ابن الأثير، الكامل، ١٥٧/٦، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١٠، ابن خلدون، العبر، ٢٨٥/٣.

(٢) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٤٢٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٥٦٩/٦، ابن الأثير، الكامل، ١٥٧/٦.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ١٥٧/٦.

الكوفة، يتضح ذلك من قول أبي هاشم داود بن الهيثم الجعفري لمحمّد بن عبد الله حين أتاه قوم ليهنئه على مقتل يحيى قائلاً: «أيها الأمير: إنّك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله(ﷺ) حيا لعزي به، فما رد عليه محمّد بن عبد الله شيئاً»[٦].

ولم يقتصر أثر ثورة يحيى بن عمر على أهل الكوفة وحدهم بل ظهر صداها عند أهل البصرة، حيث ادعى صاحب الزّنج[٧] لهم، إنّه يحيى بن عمر الّذي قتل في الكوفة، وذلك حتّى يجمع حوله القلوب[٨]، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على شدة تعلق النّاس بالعلويين، وهذا ما دفع أهل الكوفة إلى القيام بحركة جديدة ضد السّلطة العبّاسية هي حركة الحسين بن حمزة الطّالبي سنة «٢٥١هـ».

حركة الحسين بن حمزة الطّالبي[٩]:

أعلن هذا العلوي حركته في الكوفة سنة «٢٥١هـ»، وانضم إليه الزّيدية وكثير من أهل السّواد[١٠]، ولا تبين المصادر الّتي بين أيدينا الأسباب الّتي دفعته إلى القيام بحركته هذه، ولكن يبدو أنّه كان مغامراً ميالاً إلى العصيان ولم يكن خروجه بدافع مذهبي، وإلى ذلك يشير الأصفهاني قائلاً: «ولم يكن ممن يحمد مذهبه في خروجه فنسوق خبره»[١١].

ومهما يكن من أمر خروجه وأسبابه، فإنّه تمكن من السّيطرة على الكوفة واستخلف بها محمّد بن جعفر العلوي، وخرج هو إلى سواد الكوفة[١٢]، وبعد وصول الأخبار بذلك إلى الخليفة المستعين بالله «٢٤٨- ٢٥١هـ»، أرسل مزاحم بن خاقان أرطوج ليعمل على إعادة الكوفة للسلطة الشّرعية وإنهاء تمردها، فتمكن هذا من تضييق الخناق على جيش الثّوار ومن ثمّ هزيمتهم، فاصبحت أبواب الكوفة مفتوحة أمامه ولكنه لم يستطع إلقاء القبض على زعيم الحركة الّذي تمكن من الهرب بمساعدة أهل الكوفة[١٣].

(٦) اليعقوبي، تاريخ، ٢٢١/٣، ابن الطّقطقي، الفخري، ص٣٨٩، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٥/١١.

(٧) هو علي بن محمّد الّذي ادعى أنّه علوي، وتزعم ثورة للزنج في منطقة البصرة وذلك في الفترة ما بين «٢٥٥هـ- ٢٧٠هـ»، انظر خبر هذه الثّورة مفصلاً في: الطّبري، تاريخ، ٤١٠/٩- ٤٣٠، ٤٣١- ٤٣٧، ٤٧٧- ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٨، ٥٠٤- ٥٠٦، ٥٢٠- ٥٢٦، ٥٣٤، ٥٣٦- ١٩٤٥، ٥٤٠، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩٤، ٥٩٩، ٦٤٢، ٦٤٥، ٦٥٤، ٦٦١. الدوري عبد العزيز، دراسات في العصور السياسية المتأخرة ط بغداد ١٩٤٥ ص٧٥-١٠٥.

(٨) الطّبري، تاريخ، ٤١١/٩.

(٩) الحسين بن محمّد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(عليه السلام)، الطّبري، تاريخ، ٣٢٨/٩.

(١٠) الطّبري، تاريخ، ٣٢٨/٩، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٩/١١.

(١١) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص ٤٣١.

(١٢) الطّبري، تاريخ، ٣٢٨/٩.

(١٣) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص ٤٣١، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٩/١١.

وبعد دخول مزاحم بن خاقان إلى الكوفة، قابله أهلها بالرّفض وعبروا عن ذلك برميه بالحجارة، فأفقده هذا العمل صوابه، وأمر أن تضرب الكوفة بالنّار[1]، ومن ثمّ أقدم على إحراق سبعة أسواق بالكوفة[2]، وبدأ يتتبع أصحاب العلوي، فأحرق في الكوفة ألف دار ونهب أموال الّذين خرجوا معه، وحبس جميع من بالكوفة من العلويين[3].

ويبدو أنّ هذه الحركة لم تلقَ الدّعم والتّأييد الكافيين من قبل أهل الكوفة، فلعل هذا العلوي لم ينجح في توحيد صفوف الكوفيين الأمر الّذي انعكس على فشل حركته، فكان أهل الكوفة منقسمين إلى قسمين، قسم مؤيد، وقسم معارض لحركته وإلى ذلك يشير الأصفهاني قائلاً: «رأيت جماعة من الكوفيين يعيرون من خرج معه بذلك ويسبونه»[4].

وكمكافأة على إعادة الكوفة إلى السّلطة الشّرعية والقضاء على حركة العلوي، فإنّ الخليفة المستعين، أرسل إلى مزاحم بن خاقان عشرة آلاف دينار وخمس خلع وسيفاً تقديراً لجهوده[5]، وعلى الرّغم من الشّدة والسّياسة القاسية الّتي اتبعها القائد مزاحم بن خاقان في معاقبة الكوفة لاحتضانها هذه الحركة العلوية، فإنّ ذلك لم يمنعها -الكوفة- من احتضان حركة علوية أخرى، فكانت حركة علي بن زيد العلوي.

٣- حركة علي بن زيد العلوي[6]:

خرج هذا العلوي بالكوفة سنة «٢٥٦هـ»[7]، وتمكن من السّيطرة على المدينة واستقر بها وأخرج عنها عامل الخليفة[8]، وفي هذه المرة، لم يحظَ هذا العلوي بتأييد الزّيدية وغيرهم من وجوه الكوفة كما حظي سابقوه من العلويين[9]، وهذا يعطينا إشارة إلى أنّ الاختلاف في وجهات النّظر كان حاضراً منذ البداية بين أهل الكوفة في مناصرة هذه الحركة الجديدة.

وبعد وصول الأنباء إلى العاصمة بخروج الكوفة مرة أخرى عن السّلطة الشّرعية وجه الخليفة المعتمد «٢٥٦- ٢٧٩هـ»، جيشاً كثيفاً إلى الكوفة، وعقد قيادة الجيش إلى القائد التّركي الشّاه بن ميكال، وبعد اللقاء تمكن زيد بن علي من هزيمة الجيش الحكومي وقتل جماعة كثيرة من أصحابه، ونجا الشّاه بن ميكال[10].

وبعد فشل الشّاه بن ميكال في القضاء على هذه الحركة العلوية، وجّه المعتمد إلى الكوفة كيجور التّركي، وأمره أن يدعو العلوي إلى الطّاعة وأن يبذل له الأمان[11]، ودارت مفاوضات بين كيجور التّركي وعلي بن زيد، وتقدم العلوي بعدة طلبات، إلا أنّ كيجور لم يجبه إليها، فشد العلوي رحاله وغادر الكوفة إلى القادسية فعسكر بها ودخل كيجور الكوفة في «١٣» شوال سنة «٢٥٦هـ»[12]، وأخذ زيد العلوي ينتقل من مكان إلى آخر حتّى استقر به المقام في جنبلاء[13]، فبلغ خبره كيجور فخرج إليه من الكوفة في ذي الحجة سنة «٢٥٦هـ»، فالتقى الطّرفان وكانت النّتيجة انهزام علي بن زيد العلوي، وقتل وأسر عدد من أصحابه، وعاد كيجور ثانية إلى الكوفة[14].

٤- حركة محمّد بن إسماعيل العلوي[15]:

آخر حركة علوية شهدتها الكوفة خلال مدة الدّراسة، كانت حركة إسماعيل بن جعفر الّذي خرج بالكوفة سنة «٣١٢هـ»[16]، واستطاع أن يجمع حوله الأعراب وأهل السّواد واستفحل أمره، فارسلت إليه الخلافة العبّاسية جيشاً من بغداد قوامه خمسمئة رجل وألف فارس بقيادة أحمد بن سعيد[17]، فتمكن الجيش العبّاسي من تحقيق النّصر على العلوي وقتل الكثير من أتباعه[18].

وكان لهذه الحركة العلوية أنصار داخل بغداد نفسها، يدعون لهذا الثّائر العلوي ولكن الخلافة العبّاسية لم تقف مكتوفة الأيدي إزاءهم، فبعد أن بلغ الخليفة المقتدر «٢٩٥-٣٢٠هـ» أنّ مجموعة من الشّيعة كانوا يجتمعون في مسجد براثا ويدعون إلى محمّد بن إسماعيل، أصدر أوامره بهدم ذلك المسجد وقتل من دعا إلى مناصرته[19].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ١٥٩/٦، البراقي: السّيد حسين بن السّيد أحمد «ت: ١٣٣٢هـ»، تاريخ الكوفة، حرره وأضاف إليه السّيد محمّد صادق آل بحر العلوم، ط النّجف ١٣٥٦، ص٣٧١.

(٢) الطّبري، تاريخ، ٣٢٩/٩، ابن الأثير، الكامل، ١٥٩/٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنّهاية، ٩/١١.

(٤) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٤٣١.

(٥) الطّبري، تاريخ، ٣٢٩/٩.

(٦) علي بن زيد بن الحسن بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام).

(٧) الطّبري، تاريخ، ٤٧٤/٩، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٢٤/١٠.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ٢٢٣/٦، البراقي، تاريخ الكوفة، ص٣٧١.

(٩) الأصفهاني، مقاتل الطّالبيين، ص٤٣٥.

(١٠) الطّبري، تاريخ، ٤٧٤/٩، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٢٤/١٠.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٤٧٤/٩.

(١٢) ابن الأثير، الكامل، ٢٧٧/٦.

(١٣) جنبلاء: كورة وبليدة، وهو منزل بين واسط والكوفة، ياقوت، معجم البلدان، ١٦٨/٢.

(١٤) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي بن محمّد «ت: ٥٩٧هـ»، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط بغداد ١٩٩٠م، ١٨٩/٦، ابن الأثير، الكامل، ٢٧٧/٦.

(١٥) محمّد بن إسماعيل بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(عليه السلام).

(١٦) ابن الجوزي، المنتظم، ٩٨٩/٦.

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) ابن كثير، البداية والنّهاية، ١٥/١١.

(١٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٠٩/١، ابن الجوزي، المنتظم، ١٩٥/٦، ابن كثير، البداية والنّهاية، ١٥٢/١١.

وبعد استعراض هذه الحركات الّتي قام بها العلويون نستطيع القول إنّ إهمال الحكومة المركزية للكوفة، كان له كبير الأثر في تشجيع العلويين على القيام بحركاتهم تلك، فلم تكن هناك أية مقاومة عبّاسية يمكنها أن تدافع عن الكوفة، فكان كلّ علوي يخرج ويعلن معارضته للسلطة العبّاسية، لا يجد أية صعوبة تذكر في فرض سيطرته على الكوفة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تلاشي أهمية الكوفة السّياسية في حسابات الخلافة العبّاسية، أمّا عن فشل تلك الحركات فهي تكاد تشترك جميعاً في أنّ السّبب الأوّل لفشلها يعود إلى ضعف التّنظيم في صفوفها، وافتقار قادتها إلى الخبرة العسكرية في مواجهة الجيوش الّتي كانت ترسلها الخلافة العبّاسية، والّتي كانت على جاهزية عالية للقتال ويقودها خيرة قواد الدّولة، وعلى الرّغم من فشل تلك الحركات في تحقيق أهدافها، إلا أننا نستطيع القول أنّها اتسمت بالمثابرة، والجرأة، والشّجاعة والإقدام، وأعطتنا دليلاً آخر على ميل أهل الكوفة للعلويين.

المبحث السّادس

حركات القرامطة

تعرضت الكوفة خلال مدة الدّراسة «١٣٢هـ- ٣٣٤هـ»، لهجمات قاسية اتسمت بالوحشية والابتعاد عن الإنسانية، كان يقف وراءها أناس يدعون القرامطة، جعلوا من الدّين ستاراً لتنفيذ أعمالهم الإجرامية وعطلوا الكثير من حدود الإسلام[١]، فقد استباحوا الكوفة لأكثر من مرة ونكلوا بأهلها، واعترضوا طريق زوار الرّحمن وعطلوا فريضة الحج لكثير من المواسم، ولسنا هنا بصدد دراسة العقيدة القرمطية أو النّفوذ إلى أعماقها والإحاطة بجوانبها المختلفة، لكن الّذي يهمنا من الأمر هو أن نتابع ونسجل ما تعرضت له الكوفة وقوافل الحج من هجمات قام بها هؤلاء القرامطة.

أمّا عن بدايات الحركة القرمطية، فمن المعروف أنّ الكوفة كانت مهداً لتلك الحركة، ففي سنة «٢٧٨هـ»، قدم إلى الكوفة رجل من الأحواز، يظهر الزّهد والتّقشف، وأخذ يدعو إلى إمام مستور من آل بيت الرّسول(ﷺ)[٢]، وكان قد سمي قرمط باسم الرّجل الّذي كان في داره «كرميته» صاحب الأثوار، ثمّ خفف فقيل قرمط[٣] وقيل إنّ قرمط لقب رجل بسواد الكوفة يحمل غلة السّواد على أثوار له واسمه حمدان[٤]، ولم يجد هذا الدّاعي الأحوازي أي صعوبة في نشر دعوته، لأنّه كان يمتلك المعلومات الكافية عن منطقة الكوفة وأهلها، فعرف كيف يتسلل إلى عقولهم[٥]، ويذكر أنّ مسير قرمط إلى سواد الكوفة، كان قبل مقتل صاحب الزّنج، وبذلك تسنى للاثنين أن يلتقيا، إذ قال قرمط لصاحب الزّنج «إنّي على مذهب ورأي، ومعي مئة ألف ضارب سيف، فإن اتفقنا على المذهب ملت إليك بمن معي»[٦]، فتناظرا فاختلفا في الآراء، فلم يحصل الاتفاق، وبعد افتضاح أمر هذا الأحوازي في السّواد، ألقي القبض عليه، وكاد يقتل، لولا أنّه هرب[٧]، فعمل حمدان على نشر الدّعوة القرمطية في السّواد، وكان أكبر دعاته عبدان مصنف الكتب الخاصة بفكر القرامطة الدّيني[٨].

ونجح حمدان في استثمار الأوضاع المتردية الّتي أحدثتها ثورة الزّنج «٢٥٥- ٢٧٠هـ» في خدمة قضيته، فكان للتدمير والخراب الّذي أصاب السّواد من ثورة الزّنج، الأثر الكبير في نجاح دعوته فقد استطاع «وهو القروي العارف بنقاط الشّكوى عند أهل السّواد»[٩]، أن يكسب المتذمرين من سوء الأوضاع الاقتصادية من فلاحين صغار وعمال وفقراء ومعدمين[١٠]، ومن ذلك يتضح أنّ التّردي الاقتصادي كان عامل الجذب الأوّل في مشاركة النّاس في هذه الحركة الجديدة، وذلك بعد أن غر القرامطة النّاس بشعاراتهم ودعواتهم إلى المساواة بين طبقات المجتمع المختلفة والقضاء على التّميز الطّبقي، لذلك جعل القرامطة شعارهم الآية القرآنية: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[١١].

(١) ارجع ابن الجوزي جذورهم القومية إلى الفرس المجوس وقال: «قصدوا أبطال الإسلام ورد الدّولة الفارسية»، المنتظم، ١١٨/٥، ووصفهم السّيوطي بأنّهم «نوع من الملاحدة» أحلوا الحرام وحرموا الحلال، تاريخ الخلفاء، ص٣٦٦، وصفهم القلقشندي بأنّهم «طائفة ملعونة»، مآثر الأناقة، ٢٥٤/١.

(٢) الطّبري، تاريخ، ٢٣/١٠، ابن الأثير، الكامل، ٣٦٤/٦، ابن سنان، ثابت بن سنان بن ثابت بن قره «ت: ٣٦٥هـ»، تاريخ أخبار القرامطة، حققه د. سهيل زكار، ط بيروت ١٩٧١م، ص٧٠، ابن تغري بردي، جمال الدّين أبي المحاسن يوسف الاتابكي «ت: ٨٧٤هـ»، النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط القاهرة د. ت، ٧٨/٣.

(٣) الطّبري، تاريخ، ٢٥/١٠، ابن الوردي، تاريخ، ٣٣٣/٢.

(٤) الطّبري، تاريخ، ٢٥/١٠، الدّيار بكري، حسن بن محمّد بن الحسن «ت: ٩٩٠»، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ط مصر ١٢٨٣هـ ٣٤٦/٢، ابن خلدون، العبر، ٣٣٥/٣.

(٥) عليان، محمّد عبد الفتاح، قرامطة العراق، ط مصر ١٩٧٠م، ص٢١.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٦/٦.

(٧) الطّبري، تاريخ، ٢٤/١٠.

(٨) ابن النّديم، الفهرست، ص٢٧٩، المقريزي، تقي الدّين أحمد بن علي «ت: ٨٤٥هـ»، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفا، نشره وحققه د. جمال الدّين الشّيال، ط القاهرة ١٩٤٨م، ص٢٠٩.

(٩) الدّوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرّابع الهجري، ط بغداد ١٩٤٨م، ص٧٢.

(١٠) عليان، قرامطة العراق، ص٢٢.

(١١) سورة القصص، الآية٥.

وبنى حمدان لنفسه قرب الكوفة مقاماً رسمياً دعاه «دار الهجرة» واتخذت هذه الدّار مركزاً يلوذ به أتباعه ويشنون منه الغارة على غيرهم وأحاطوا تلك الدّار بسور وحصنوها حتّى «لم يبقَ أحدٌ إلا خافهم، ولا بقي أحد يخافونه لقوتهم وتمكنهم بالبلاد»[1].

وهذه الأحداث كانت تجري على مسمع ومرأى عمال الخليفة العبّاسي، دون أن يتخذوا أي شيء من شأنه أن يحد من تعاظم نفوذ هذه الحركة، وقد نبه بعض الكوفيين الحكومة المركزية في بغداد على خطر هذه الجماعة، إلا أنّهم لم يجدوا آذاناً صاغية[2]، ولعل السّبب في ذلك يعود إلى أنّ أحمد بن محمّد الطّائي، وهو المسؤول عن هذه المنطقة آنذاك كان يتستر عليهم، فلم يتخذ أي إجراء من شأنه أن يقضي على حركة القرامطة وهي في مهدها، لأنّ القرامطة كانوا يدفعون له عن كلّ واحد منهم ديناراً في السّنة حتّى يحجب أخبارهم على السّلطان[3].

وأوّل محاولة جدية من قبل الخلافة العبّاسية في مطاردة القرامطة وتتبع أخبارهم كانت على عهد الخليفة المعتضد «٢٧٩- ٢٨٩هـ»، وكان ذلك في سنة «٢٨٤هـ» حيث ألقى أحد عمال المعتضد القبض على بعض قرامطة الكوفة وأرسلهم إلى بغداد «فقرروا بالضّرب، فأقروا على أبي هاشم بن صدقة الكاتب أنّه منهم فقبض عليه وحبسه»[4].

وهذا النّص يشير إلى مدى حساسية المسألة خصوصاً وأنّ نفوذ القرامطة قد وصل إلى أناس يرتبطون بشكل من الأشكال بالبلاط العبّاسي، فأخذت الحركة القرمطية تتطور شيئاً فشيئاً وبدأ بروزهم على السّاحة السّياسية يظهر بشكل واضح، ففي سنة «٢٨٩هـ» قام القرامطة في سواد الكوفة بحركة عنيفة بزعامة أبي الفوارس أحد دعاة عبدان، فتوجه «شبل» غلام أحمد بن محمّد الطّائي إليهم، وقضى على هذه الحركة بشدة، وظفر برئيسهم أبي الفوارس وحمله ومن معه إلى الخليفة المعتضد[5]، فأمر الخليفة بتعذيبه «فخلعت عظامه وقلعت أضراسه وقطعت يداه ورجلاه، ثمّ قتل بعدها»[6]، وصلب بالجانب الشّرقي من بغداد ثمّ حول إلى الجانب الغربي من بغداد[7]، ليكون عظة لكلّ من سولت له نفسه في الانتماء لهذه الحركة.

ويبدو أنّ المعتضد كان عازماً على استئصال جذور القرامطة بالكوفة، فأرسل إليهم الجيوش تباعاً، حتّى قضى على كثير منهم، فوجد زكرويه -وهو أحد دعاة القرامطة- «أنّه لا مدافع عن نفسه عند أهل السّواد»[8]، فقرر الاختباء بإحدى القرى[9]، وكانّ زكرويه وهو في مخبئه يرسل دعاته لاستغواء الأعراب واستمالتهم إلى هذه الدّعوة، بعد أنّ أخفق في استمالة أهل السّواد، فتحول نشاط القرامطة إلى الأعراب في بادية السّماوة[10]، حيث بني كلب فلم يجبهم أحد إلا الفخذ المعروف ببني العليص[11]، وكان أوّل هجوم تتعرض له الكوفة من قبل القرامطة بعد انتقال نشاطهم إلى الشّام كان عام «٢٩٣هـ»، حيث استقر رأي القرامطة على مهاجمة المدينة صباح اليوم العاشر من ذي الحجة من تلك السّنة، حتّى يتمكنوا من القضاء على أكبر عدد ممكن من الجنود والأهالي أثناء انشغالهم بأداء صلاة العيد فيتم لهم النّصر بسهولة[12]، لكن أحداثاً طرأت جعلتهم يؤخرون هجومهم[13] فزحفوا إلى الكوفة بعد أن فرغ النّاس من الصّلاة، وتمكنوا من حمل سلاحهم ومواجهة القرامطة، الّذين تمكن مئة فارس منهم من دخول الكوفة[14]، فوضعوا السّيف وقتلوا الكثير من النّاس، وأحرقوا الكثير من الأماكن[15]، وحاول القرامطة استمالة أهل الكوفة فأخذوا يهتفون «يا لثارات الحسين» يقصدون الحسين بن زكرويه الّذي صلب ببغداد، ورفعوا أعلاماً بيضاء مكتوب عليها «يا أحمد يا محمّد»[16]، يعنون ابني زكرويه المقتولين، غير أنّهم لم يظفروا بأي تأييد إذ سارع أهل الكوفة إلى حمل السّلاح في

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص١١٣.

(٢) الطّبري، تاريخ، ٢٥/١٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، أخبار الحقائق، عُني بنشره وتحقيقه عمر السّعيدي، ط دمشق ١٩٧٢م، ج٤ق، ٦٩/٢، ثابت بن سنان، أخبار القرامطة، ص١٠.

(٣) الطّبري، تاريخ، ٢٥/١٠.

(٤) الطّبري، تاريخ، ٦٤/١٠.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٤١٠/٦، ابن سنان، أخبار القرامطة، ١٨٠٠، ابن الجوزي، المنتظم، ٣٠/٦، ابن العبري، تاريخ مختصر الدّول، ص١٥١.

(٦) المسعودي، مروج الذّهب، ١٨١/٤، ابن الأثير، الكامل، ٤١٠/٦.

(٧) الطّبري، تاريخ، ٨٦/١٠، ابن كثير، البداية والنّهاية، ٨٥/١١

(٨) الطّبري، تاريخ، ٩٤/١٠.

(٩) الطّبري، تاريخ، ٩٥/١٠، القرطبي، عربي بن سعيد «ت: ٣٦٦»، صلة تاريخ الطّبري، «ضمن كتاب ذيول تاريخ الطّبري»، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة د. ت، ص٢٣٥.

(١٠) بادية السّماوة: بادية السّماوة بين الكوفة والشّام قفري، ياقوت، معجم البلدان، ٢٤٥/٣.

(١١) الطّبري، تاريخ، ٩٥/١٠.

(١٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٥٧/٦.

(١٣) يعلل المقريزي سبب تأخرهم بأنّ الله لطف بعباده، فأغرق القرامطة بنومهم حتّى أيقظتهم الشّمس، اتعاظ الحنفا، ص٢٣٥.

(١٤) الطّبري، تاريخ، ١٢٥/١٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ١١٨/١.

(١٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص٢٣٥.

(١٦) الطّبري، تاريخ، ١٢٦/١٠، ابن كثير، البداية والنّهاية، ١٠٠/١١، الحنبلي، شذرات الذّهب، ٢١٣/٢.

وجوههم، حتّى إنّ الّذي لم يجد سلاحاً منهم كان يقذفهم بالحجارة، فآثروا السّلامة ولاذوا بالفرار[1]، فأصيب القرامطة بخيبة أمل وفشلت أحلامهم بالسّيطرة على المدينة لتكاتف أهلها ودفاعهم عن أنفسهم ومدينتهم، وبعد أن وصل الخبر إلى الحكومة المركزية بتعرض الكوفة لهجوم القرامطة، أصدر الخليفة المكتفي «٢٨٩- ٢٩٥هـ»، أوامره بإنفاذ الجيش إليها بأسرع وقت ممكن، وجهزه بكلّ ما يحتاج إليه من الأموال والسّلاح، وعهد بقيادته إلى كبار قواده من أمثال وصيف بن صوارتكين التّركي وبشر الخادم الافشيني والفضل بن موسى بن بغا[2] فوصل هذا الجيش إلى الكوفة بعد ستة أيّام من هجوم القرامطة عليها، فوجدوا أنّ القرامطة قد غادروها، وكانت وجهتهم الصّوار[3]، فقرر الجيش العبّاسي المسير إلى هذه القرية للقاء القرامطة[4]، فلحقه من جراء ذلك الكثير من التّعب وأصاب جنوده الإعياء[5]، وهناك التقى الطّرفان وكانت النّتيجة انهزام الجيش العبّاسي[6].

وبعد تحقيق النّصر على القوات الحكومية سار القرامطة إلى قلب الصّحراء جاعلين مهمتهم قوافل الحجاج العائدين من الحج، أملاً في الحصول على الأموال لديمومة حركتهم، وتعينهم في صراعهم ضد السّلطة، خصوصاً وأنّ عمليات من هذا النّوع سهلة وبسيرة، فغالباً ما يكون هؤلاء الحجاج عزلاً من السّلاح، فنزل القرامطة بمكان يعرف بالسّلمان[7] على بعد أربعة أميال من واقصة ونصبوا الكمائن لأوّل قافلة عائدة من الحج، لكن القافلة نجت من مكائدهم بعد أن حذرها أهل واقصة[8] وأعلموهم بوجود القرامطة، فأثار عمل أهل واقصة هذا غضب القرامطة فهاجموهم وعذبوهم عذاباً شديداً[9].

وبعد فشل مهمتهم في السّلمان، سار القرامطة نحو «زبالة»[10]، حتّى لا تفلت منهم أية قافلة كما حدث عندما كانوا في السّلمان وفي طريقهم إلى وجهتهم أجبر القرامطة من كان في طريقهم من البدو على المسير معهم[11]، ويبدو من ذلك أنّ القرامطة أرادوا أن يؤمنوا خطوطهم الخلفية، ومنع الأعراب من نجدة الحجاج، مما يتيح لهم الجو المناسب لافتراس قوافل الحج العائدة، فكانت قافلة الحج الخراسانية أوّل قافلة تتعرض لهجوم القرامطة في مكان يُعرف بـ«عقبة الشّيطان»[12]، فقتلوا الكثير من رجالها ونسائها ونهبوا ما كان معهم من أموال[13]، ولم يفعل الجيش العبّاسي المكلف بحماية قوافل الحج أي شيء يحول دون مهاجمة القرامطة لقوافل الحجاج ويقول المقريزي: «قدم محمّد بن إسحاق بن كنداج فاقام بالقادسية -وإدراكه من هرب من حجاج خراسان- وقال: لا أغدر بجيش السّلطان»[14].

وكان من نتائج تهاون الجيش العبّاسي في متابعة القرامطة، وتوفير الحماية للحجاج أن تعرضت القافلة الثّانية لخطر القرامطة، الّذين ردموا جميع الآبار وملؤوها بجيف الإبل والدّواب الّتي كانت معهم، فكان أن مات أغلب أفراد القافلة عطشاً[15]، وقيل أنّه كان في القافلة من الحجاج زهاء عشرين ألف رجل قتل أغلبهم[16]، وبلغ جملة ما أخذه القرامطة من الأموال إلى ألفي ألف دينار[17]، وبينما كان القرامطة منشغلين بنهب هذه القافلة، أقبلت القافلة الخراسانية الثّالثة، فخرج إليها جماعة من القرامطة فواقعوهم وكان سبيلهم سبيل هذه القافلة، فنهبها القرامطة، وبعد أن فرغ زكرويه من ذلك غادر العقبة بعد أن ملأ البرك والآبار بالجيف من النّاس والدّواب[18].

وكان لهجمات القرامطة تلك صدى كبير عند النّاس في العاصمة بغداد، فأثار عمل القرامطة هذا غضب الخليفة المكتفي، فارسل محمّد بن داود بن الجراح -وكان يتولى دواوين الخراج والضّياع- إلى الكوفة للمقام بها وإنفاذ الجيوش إلى القرمطي،

(١) الطّبري، تاريخ، ١٢٧/١٠، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص٢٧٥، ابن الجوزي، المنتظم، ٥٧/٦.

(٢) الطّبري، تاريخ، ١٢٥/١٠، القرطبي صلة تاريخ الطّبري، ص٢٠.

(٣) الصّوار: موضع بينه وبين الكوفة أربعة أميال، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ١١٨/١.

(٤) الطّبري، تاريخ، ١٢٥/١٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ١١٨/١.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص١٣٦.

(٦) الطّبري، تاريخ، ١٢٦/١٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ١١٨/١.

(٧) السّلمان: منزل بين عين صيد وواقصة والعقبة.. والسّلمان ماء قديم جاهلي.. وهو طريق إلى تهامة من العراق، ياقوت، معجم البلدان، ٢٣٩/٣.

(٨) واقصة: منزل بطريق مكة بعد القرعاء نحو مكة وقبل العقبة، ياقوت، معجم البلدان، ٣٥٤/٥.

(٩) الطّبري، تاريخ، ١٣٠/١٠.

(١٠) زبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثّعلبية، ياقوت، معجم البلدان، ١٢٩/٣.

(١١) الطّبري، تاريخ، ١٣/١٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ١٢٤/١.

(١٢) عقبة الشّيطان: منزل في طريق مكة بعد واقصة وقبل القاع لمن يريد مكة، وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل، ياقوت، معجم البلدان، ١٣٤/٤.

(١٣) الطّبري، تاريخ، ١٣١/١٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ١٢٤/١.

(١٤) اتعاظ الحنفا، ص٢٣٣، وانظر الطّبري، تاريخ، ١٣٠/١٠- ١٣١.

(١٥) الطّبري، تاريخ، ١٣١/١٠- ١٣٢، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ١٢٤/١.

(١٦) الطّبري، تاريخ، ١٣٢/١٠.

(١٧) حاول الطولونيون تهريب أموالهم من مصر إلى بغداد، وحتّى لا ينكشف أمرهم حولوا ما لديهم من الذّهب والفضة والحلي إلى سبائك، وحُمل إلى مكة ليوافوا به مدينة السّلام مع الحاج، فانضموا إلى هذه القافلة الّتي تعرضت لهجوم القرامطة فحصلوا على تلك الأموال، الطّبري، تاريخ، ١٣٢/١٠.

(١٨) الطّبري، تاريخ، ١٣٢/١٠.

وأمده بأموال كثيرة لإعطاء الجند وإنجاح مهمته[1]، ولكن الجهود الحكومية قد باءت بالفشل ومما ساعد على نجاح مهمة القرامطة، هو تجاهل الحجاج أنفسهم لنداء الحكومة الّتي طلبت منهم تغيير خط سيرهم حتّى يتحاشوا الوقوع في قبضة القرامطة[2]، وربما يعود ذلك إلى ضعف الثّقة المتبادلة بين الطّرفين.

واتجه القرامطة إلى تشديد هجماتهم على المدن وعلى قوافل الحج خلال فترة الخليفة المقتدر «٢٩٥- ٣٢٠هـ»، الّذي اتسمت مدة حكمه بعدم الاستقرار[3]، وكان من جراء ذلك أن تعرضت قوافل الحجاج العائدة من حج عام «٣١١هـ» لهجمات القرامطة، فاثخن القرامطة الجراح فيها، وقتلوا وأسروا من كان فيها وغنموا كثيراً من الأموال وكان من بين الأسرى أبو الهيجاء بن حمدان الّذي كان أميراً على ولاية طريق الكوفة- مكة، وكان أميراً للحجاج، ولقي الكثير من الحجاج -الّذين أفلتوا من القرامطة- حتفهم جوعاً وعطشاً[4]، فاثار عمل القرامطة هذا هلع العامة، فكانت شوارع بغداد مسرحاً لأعمال لاشعورية قامت بها النّساء وهن يلطمن ويصرخن في الشّوارع مسودات الوجوه منشورات الشّعور[5]، عندئذ أمر الخليفة المقتدر قائده ياقوت بالمسير إلى الكوفة بصحبة جنود الفرقة الحجرية، لأجل المحافظة عليها ومنع القرامطة من التّعرض لها، ولكن الأنباء حملت عودة القرامطة بزعامة أبي طاهر القرمطي[6]، فرجع ياقوت إلى بغداد ولم يتم الحج في عام «٣١٢هـ»[7]، ثمّ أطلق أبو طاهر القرمطي من كان عنده من الأسرى وفيهم أبو الهيجاء بن حمدان، وأرسل إلى الخليفة المقتدر يطلب منه أن تكون له البصرة والأحواز، فلم يجبه إلى ذلك[8]، ويبدو أنّ رفض طلبه هذا أغلى نار الانتقام في قلبه، فشد الرّحال عن هجر[9]، يريد قوافل الحج القادمة إلى مكة سنة «٣١٢هـ»، وكان جعفر بن ورقاء الشّيباني يتقلد أعمال الكوفة وطريق مكة هذه المرة، فلما خرج الحاج تقدمهم جعفر خوفاً من القرمطي وكان معه ستة آلاف جندي حكومي، وألف رجل من قبيلته قبيلة بني شيبان[10]، فهجم أبو طاهر على القافلة الأولى، فهربت إلى الكوفة ومعهم جنود الحكومة، فسار القرامطة خلفهم وقتل من قتل وأسر من أسر، وبذلك قد هيأ الطّريق أمامه ليدخل الكوفة دون أي شيء يعوقه، فدخل المدينة وبقي فيها ستة أيّام يدخل المدينة نهاراً فيقيم في جامع الكوفة إلى الليل ينهب الأموال والثّياب، ثمّ يرجع إلى معسكره ليلاً وبعد ذلك عاد إلى هجر[11]، وهذه الحادثة تبين لنا بوضوح معنويات الجيش العبّاسي، وفقدان ثقته بنفسه، فعلى الرّغم من ضخامة الجيش الحكومي الّذي بلغ تعداده أكثر من سبعة آلاف مقاتل، نراهم سرعان ما يسلمون مقاليد الأمور بيد القرامطة، مما شجع هؤلاء على المضي قدماً نحو دخول الكوفة والعبث بممتلكات المواطنين ستة أيّام بحرية كاملة يقابلها صمت مطبق من قبل الحكومة وكأنّ الشّيء لا يعنيها وهذا التّهاون من قبل الحكومة، أعطى الزّخم الكبير للقرامطة للتجاوز من جديد على قوافل الحجاج، وهذا ما حدث سنة «٣١٣هـ»، عندما هاجم القرمطي -معه خمسمئة فارس وستمئة راجل- الحجاج فقتل من ظفر به منهم ورجع الباقون إلى الكوفة ومدينة السّلام[12].

وهنا جاء رد الحكومة المركزية متاخراً وعديماً للجدوى، فبعد وصول أخبار استيلاء القرامطة على الكوفة، ندب الخليفة المقتدر مؤنس الخادم بالخروج إليها والاقتصاص من القرامطة، وجهزه بألف ألف دينار، لكن وصوله كان متأخراً إذ وجد القرامطة قد رحلوا عنها فغادر إلى واسط وجعل على الكوفة ياقوت[13] ولم يجرأ ياقوت وهو على رأس جيش كبير

(١) المصدر نفسه، ١٣٣/١٠.

(٢) الطّبري، تاريخ، ١٣٣/١٠.

(٣) الملك الأشرف، عمر بن يوسف بن رسول «ت: ٦٩١هـ»، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، حققه ك ماو، وسترستين، ط٢ بيروت ١٩٨٥م، ص٩٧.

(٤) انظر تفضيل ذلك: المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص ٣٣٠، ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمّد «ت: ٤٢١هـ»، تجارب الأمم، اعتنى بالنّسخ والتّصحيح هـ ف. أمدروز، ط القاهرة ١٩١٤م، ١٢٠/٥، الصّابي، أبو الحسن هلال بن المحسن «ت: ٤٤٨هـ»، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد السّتار أحمد فرج، ط القاهرة ١٩٥٨م، ص٥٦- ٥٧، ابن الجوزي، المنتظم، ١٨٨/٦.

(٥) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٢٣/١- ٢٢٤، النّويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: أحمد كمال زكي، محمّد مصطفى زيادة، ط القاهرة ١٩٨٠م، ٦٧/٢٣.

(٦) هو سليمان بن سعيد «٢٩٤- ٣٣٤هـ» كان من أشهر رؤساء القرامطة في البحرين، ظل مدة طويلة من الزّمن مصدر رعب لقوافل الحجيج وللمدن الإسلامية مثل الكوفة والبصرة، بدأ بقيادة القرامطة منذ سنة «٣١١هـ».

(٧) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ١٤٥/٥، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٢٨/١.

(٨) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ١٣٩/٥، الهمذاني، محمّد بن عبد الملك «ت: ٥٢١هـ» تكملة تاريخ الطّبري، «ضمن كتاب ذيول تاريخ الطّبري»، تحقيق: محمّد أبو الفضل، ط مصر د. ت، ص٢٤٦، ابن خلدون، العبر، ٣٧٧/٣.

(٩) هجر: مدينة وهي قاعدة البحرين، ياقوت، معجم البلدان، ٣٩٣/٥.

(١٠) الهمذاني، تكملة تاريخ الطّبري، ص٤٢٧، ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، ٢١٣/٣.

(١١) ابن الوردي، تاريخ، ٣٥٧/١، ابن خلدون، العبر، ٣٧٧/٣.

(١٢) المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص٣٣٠، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب، ٢٦٦/٢، الأصفهاني: حمزة بن الحسن «ت: ٣٦٠هـ»، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط٢ بيروت ١٩٦١م، ص ١٥١.

(١٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٢٨/١، القرطبي، صلة تاريخ الطّبري، ص١٩.

أن يتبع القرمطي[1]، وكان من نتيجة ذلك أن تعطل الحج لهذا الموسم[2]، وفي عام «٣١٤هـ» تقلد يوسف بن أبي السّاج نواحي المشرق، فأمره الخليفة المقتدر بالسّير إلى واسط للاستعداد لمحاربة القرامطة لو أنّهم هاجموا الكوفة[3]، فاقام ابن أبي السّاج في واسط حتّى جاءت الأخبار بمسير أبي طاهر القرامطي من هجر إلى الكوفة وذلك في عام «٣١٥هـ»، فخرج ابن أبي السّاج في أواخر شهر رمضان قاصداً الكوفة، ومن جانبها فإنّ الخلافة العبّاسية عملت ما في وسعها من أجل إنجاح مهمة ابن أبي السّاج في مواجهة القرامطة، فلم يبخل عليه الوزير علي بن عيسى بأي إمدادات مالية وعمد إلى إطلاق الأرزاق من بيت المال، وأصدر أوامره إلى عمال الكوفة بإعداد الميرة، فحمل إليه سلامة الطّولوني مئة كر دقيق وألف كر شعير[4].

ومع ذلك فإنّ الحظ لم يحالف ابن أبي السّاج الّذي وصل إلى الكوفة متأخراً بيوم واحد عن القرمطي، الّذي تمكن من دخول الكوفة والاستيلاء عليها في يوم الجمعة الثّامن من شوال، ومما سهل مهمته في ذلك، هروب موظفي الدّولة من الكوفة الّذين تملكهم الخوف من بطش القرامطة[5]، وبعد أن وصل ابن أبي السّاج إلى الكوفة كتب إلى القرمطي ينذره ويقول له: «اسمع وأطع وإلا فاستعد للقتال»[6]، فوقعت الحرب بين الطّرفين يوم السّبت «٩» شوال سنة «٣١٥هـ»[7]، وعلى الرّغم من الفرق الشّاسع بين القوات الحكومية والقرامطة، والّذي كان يصب في صالح قوات الدّولة، من حيث التّفوق العددي والمادي[8]، إلا أنّ القرامطة تمكنوا من كسب المعركة، وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من القوات الحكومية وكان من بين الأسرى يوسف بن أبي السّاج[9]، ويبدو أنّ السّبب الأوّل في هزيمة القوات الحكومية يعود إلى الثّقة الزّائدة بالنّفس من قبل يوسف بن أبي السّاج واستخفافه بقدرات القرامطة، فبعد أن عاين عسكر القرامطة قال: «مَنْ هؤلاء الكلاب حتّى أفكر فيهم، هؤلاء بعد ساعة في يدي، وتقدم أن يكتب الفتح قبل اللقاء»[10]، أضف إلى ذلك أنّ استيلاء القرامطة على الكوفة وهروب موظفي الدّولة خوفاً منهم، عزز من اعتقادهم أن لا شيء يقف في طريقهم مهما كبر حجمه يساعدهم في ذلك ما غنموا عليه من إمدادات أثناء دخولهم إلى الكوفة، فكان ذلك خير عون لهم وسهل مهمتهم في هزيمة القوات الحكومية، تلك الهزيمة الّتي أحدثت ردود فعل عنيفة في بغداد، فأصاب السّكان الهلع وخاف الخاص والعام، خاصة بعد أن وصلت بغداد فلول الجيش المنهزم[11]، وانتقل عامة سكان الجانب الغربي إلى الجانب الشّرقي خوفاً من القرمطي[12].

وكان لاضطراب الأوضاع الأمنية الّتي عاشتها الكوفة، دور كبير في تهيئة المناخ المناسب لمجموعة من قرامطة سواد الكوفة، الّذين خرجوا في عين التّمر وكان يقودهم شخص يسمى عيسى بن موسى، جاء إلى ولاية الكوفة فجبى خراجها وطرد عمال الخليفة من السّواد، ودار تلك المناطق بنفسه، فارسل إليه الخليفة المقتدر جيشاً بقيادة صافي البصري، الّذي استطاع أن يهزم القرامطة في السّواد، وأسر قسماً كبيراً منهم، أدخلهم إلى بغداد مشهرين وأعلامهم منكسة[13]، ومن جراء هجمات القرامطة هرب النّاس من مدينة قصر ابن هبيرة إلى بغداد[14].

وانشغلت المصادر في عام «٣١٧هـ» بإيراد أخبار تجاوز القرامطة على مقدسات المسلمين وهجومهم على مكة المكرمة، واقتلاعهم الحجر الأسود فلم يذكروا هجوماً لهم على الكوفة[15]، ويبدو أنّ ابتعاد القرامطة عن الكوفة وانشغالهم بمهاجمة مكة، إضافة إلى سوء أوضاع الكوفة الأمنية وقلة

(١) الهمذاني، تكملة ذيل تاريخ الطّبري، ص٢٤٨.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ١٩٦/٦، ابن خلدون، العبر، ٣٧٧/٣.

(٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٣٠/١، ابن الوردي، تاريخ، ٣١٤/١، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٧٢/٢.

(٤) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ١٧٢/٥، ابن الجوزي، المنتظم، ٢٠٨/٦- ٢٠٩.

(٥) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٣٦/١، الهمذاني، تكملة ذيل تاريخ الطّبري، ص٢٤٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنّهاية، ١٥٥/١١، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ٢٠٨/٦.

(٧) الهمذاني، تكملة تاريخ الطّبري، ص٢٥٢، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ٢٠٨/٦.

(٨) هناك فرق بين المؤرخين في تقدير عدد قوات الطّرفين، فتراوحت أرقام المؤرخين حول جيش الدّولة بين «٢٠» ألف مقاتل و«٤٠» ألف مقاتل، في حين تراوحت الأرقام الّتي أوردها المؤرخون حول جيش القرامطة بين «٨٠٠» مقاتل و«٢٠٠» مقاتل، حول ذلك انظر: مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج ق، ٢٣٧/١، ابن كثير، البداية والنّهاية، ١٥٥/١١، ابن الوردي، تاريخ، ٣٥٨/١، ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، ٢١٧/٣، ابن الجوزي، المنتظم، ٢٠٨/٦.

(٩) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٣٨/١، ابن كثير، البداية والنّهاية، ١٥٥/١١.

(١٠) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٠٨/٦، وانظر: مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٣٧/١، بدوي، عبد الرّحمن، مذاهب الإسلاميين، ط١ بيروت ١٩٧٣م، ١٣١/٢.

(١١) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٣٨/١، ابن الجوزي، المنتظم، ٢٠٩/٦.

(١٢) الأصفهاني، تاريخ، سني ملوك الأرض، ص١٥٤.

(١٣) القرطبي، صلة تاريخ الطّبري، ص١١٩، ابن خلدون، العبر، ٣٧٨/٣.

(١٤) الأصفهاني، تاريخ حين ملوك، ص١٥٥.

(١٥) المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص٣٣٤، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٥٧/١، ابن الوردي، تاريخ، ٣٦٠/١.

العناية العبّاسية بها، كان عاملاً مشجعاً للأعراب على مهاجمة الكوفة، فقد اضطر أبو الفوارس محمّد بن ورقاء إلى أن يستعين بأشراف الكوفة من العلويين والعبّاسيين، لدرء خطر الأعراب من بني نمير وبني كلاب، وذلك لعدم وجود جند يحرسونها ونتيجة لقلة المدافعين، أسر الوالي ومعه مجموعة من الأشخاص[1].

وفي العشرين من شهر شعبان سنة «٣١٩هـ»، كانت الكوفة على موعد آخر مع القرامطة، ونزلوا هذه المرة في بداية الأمر في «المصلى العتيق»[2]، ولعل المقصود من ذلك هو مرقد الإمام علي(عليه السلام) ثمّ توجه مئتا فارس من القرامطة ودخلوا الكوفة، واستباحوا المدينة لمدة خمسة وعشرين يوماً، نهبوا خلالها المخازن، الّتي فيها غلات كثيرة للدولة وللمواطنين، من دون أن يواجهوا أي مقاومة تذكر يمكن الإشارة إليها[3].

ويرسم لنا السّيوطي صورة مريعة لأوضاع بغداد الدّاخلية، بعد أن وردتها الأخبار بدخول القرامطة إلى الكوفة قائلاً: «نزل القرمطي الكوفة، وضاق أهل بغداد من دخوله إليها، فاستغاثوا ورفعوا أصواتهم والمصاحف وسبوا المقتدر»[4]، ووصل الأمر إلى حد تعطيل الحياة اليومية، فاغلقت الأسواق، واتجه النّاس للتنفيس عن نفسيتهم المضطربة فلازموا المساجد خوفاً من القرمطي[5].

وشهد عام «٣٢٢هـ»، تحولاً كبيراً في العلاقة بين الحكومة والقرامطة، إذ إنّ الحكومة ولأول مرة منذ ظهور القرامطة على المسرح السّياسي بدأت تشعر بوجود قوة إلى جانبها تنافسها في بسط السّيطرة على أجزاء الدّولة، فكان إن دخلت الحكومة المركزية في مفاوضات مع أبي طاهر القرمطي، وتركزت تلك المفاوضات حول نقطتين أساسيتين هما، أن يكف القرامطة عن مواجهة قوافل الحج، وأن يعملوا على إعادة الحجر الأسود إلى مكة، لقاء مبلغ من المال، فاستجاب أبو طاهر للشرط الأول ورفض الثّاني[6].

ويبدو أنّ قرار الخلافة العبّاسية بالدّخول في مفاوضات مع القرامطة، كان قراراً في غير محله، إذ أنّه عمل على ترسيخ ثقة القرامطة بانفسهم، بأنّهم أصبحوا قوة لا يستهان بها، مما شجعهم على مواصلة هجماتهم من جديد على المدن وقوافل الحج، وهذا ما قام به أبو طاهر القرمطي عام «٣٢٣هـ» حين هاجم قوافل الحج الذّاهبة إلى مكة في هذه السّنة، ومعه تسعمئة فارس وتسعمئة راجل[7]، وقتل من جراء هجوم القرامطة هذا عدد كبير من الحجاج، حتّى أنّ لؤلؤ أمير قوافل الحج -وكانت له ولاية طريق مكة المكرمة- أصيب من جراء ذلك فطرح نفسه مع القتلى، حتّى إذا جن الليل دخل متخفياً متسللاً إلى الكوفة[8].

وسار القرمطي نحو الكوفة متعقباً قوافل الحج، إلا أنّ بعض العلويين تدخلوا وطلبوا منه أن يكف عن التّعرض للقوافل، فاستجاب لطلبهم واضعاً شرطاً لذلك هو أن يتعطل الحج لهذا الموسم أي سنة «٣٢٣هـ»[9].

وعلى الرّغم من الاستجابة لطلبه بتعطيل الحج فإنّ القرمطي أحب أن يستعرض قدراته، فدخل الكوفة وأقام بها ثمّ رحل إلى البحرين[10]، وكأنّه يبعث برسالة تفوقه إلى الحكومة المركزية في بغداد، وشأنها شأن المرات السّابقة عندما تتعرض الكوفة لهجمات القرامطة، فإنّ بغداد اضطربت أوضاعها وأصاب سكانها الهلع والفزع، وتملكهم الخوف من زحف القرامطة على مدينتهم[11] وبدأ الخليفة الرّاضي «٣٢٢- ٣٢٩هـ» وكأنّه عاجز عن فعل أي شيء، سوى الصّيام أيّاماً تقرباً لله أن يدفع خطر القرامطة عن المسلمين، نادماً على ما آلت إليه أحوال الخلافة من قصور في أحوالها المالية اللازمة لتجهيز الجيوش قائلاً: «لو كان لي مال كمال المكتفي حين فعل زكرويه بالحجاج ما فعل فطلبه بالجيش والأموال حتّى قتله لما رضيت والله إلا أن أخرج بنفسي إلى البحرين ولكن ما حيلتي في جند مستخنثين قد ملكوا الأمر دوني وبعوز مال وانخراق هيبة إلى الله اشتكي وبه استنصر»[12].

وهذا النّص يبين خطورة الحالة الّتي كانت عليها الخلافة العبّاسية إلى الحد الّذي جعلها في موضع العاجز عن توفير الطّمانينة والأمان لرعاياها، وتحكم العنّاصر الانتهازية بمقاليد الأمور، مما فسح المجال الكامل أمام القرامطة للتنقل بحرية كاملة بأجزاء الدّولة العربية الإسلامية، يشجعهم على ذلك غياب قوة الرّدع الكافية لتصرفاتهم الوحشية، لذلك فإنّ أبا طاهر القرمطي عاد من جديد في عام «٣٢٥هـ» إلى التّعرض للكوفة فدخلها، وألقى القبض على شفيع اللؤلؤي أمير الكوفة،

(١) القرطبي، صلة تاريخ الطّبري، ص١٢٧، ابن الأثير، الكامل، ٢١٢/٦.
(٢) القرطبي، صلة تاريخ الطّبري، ص١٣٩، ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، ٢٢٨/٣.
(٣) الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض، ص١٥٨، القرطبي، صلة تاريخ الطّبري، ص١٣٩.
(٤) تاريخ الخلفاء، ص١٨٤.
(٥) ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، ٢٢٨/٣.
(٦) الهمذاني، تكملة تاريخ الطّبري، ص٣٠٧.
(٧) المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص٣٣٧.
(٨) المسعودي، التّنبيه والأشراف، ص٣٣٧، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٣٢٣/١، ابن الجوزي، المنتظم، ٢٧٦/٦.
(٩) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٣٣٠/٥.
(١٠) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق، ٢٨٦/١، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص٢٤٣.
(١١) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٣٣٠/٥.
(١٢) الصّولي، أبو بكر محمّد بن يحيى «ت: ٣٣٥هـ»، أخبار الرّاضي والمتقي بالله، نشره ج. هيورث، ط مصر ١٩٣٥م، ص٦٩.

ثمّ كلفه بأن ينقل مطالبيه إلى السّلطات بالحصول على الأموال، وإلا فإنّه سيجعل السّيف يقول كلمته[1].

وفي هذه الأثناء خرج أمير الأمراء ابن رائق من بغداد إلى الكوفة، ومعه عددٌ من القواد، لينظر ما تؤول إليه الأمور مع القرمطي[2]، فدخل في مفاوضات مع القرامطة، فاشترط أبو طاهر أن يدفع له مالاً وطعاماً بـ «١٢٠ ألف دينار» سنوياً كشرط دخوله في الطّاعة، فقبل ابن رائق هذا الشّرط على أن يصبح القرامطة جنوداً تابعين للدولة، فرفض القرمطي هذا الشّرط فجرت بينهم مراسلات عدة لم يتحقق منها شيء فعاد القرمطي إلى بلاده[3].

وكان عام «٣٢٧هـ» أوّل عام فرض فيه القرامطة الضّرائب على النّاس الّذين يريدون الحج، إذ نجح أبو علي عمر بن يحيى العلوي في إقناع القرمطي بعدم التّعرض للحجاج، فوافق على ذلك بشريطة أن يحصل على مبلغ قدره خمسة وعشرون ألف دينار، وأن يدفع الحجاج عن كلّ جمل خمسة دنانير فتم الاتفاق بين الطّرفين وتم الحج[4].

وآخر تواجد للقرامطة على أرض الكوفة خلال مدة هذه الدّراسة، كان عام «٣٣٠هـ»، وذلك عندما جلب القرامطة الحجر الأسود من هجر إلى الكوفة فعلقوه في الاسطوانة السّابعة من مسجد الكوفة لكي يراه النّاس[5].

الفصل الثّاني
الحياة الفكرية في الكوفة «من ١٣٢- ٣٣٤هـ»

مقدمة

كانت السّتة السّابعة عشرة للهجرة بداية عهد علمي جديد، ليس في الكوفة وحدها وإنما في العراق كلّه، ثمّ في العالمين العربي والإسلامي، فقد شاء الله أن تبنى الكوفة بأمر الخليفة عمر، لتبدأ رحلتها مع التّاريخ وتسهم من موقعها في تطوير الحركة الفكرية العربية الإسلامية ورفدها فقد ساعد نزول مجموعة كبيرة من أصحاب رسول الله(ﷺ) بلغ عددهم ثلاثمئة من أصحاب الشّجرة وسبعين من أهل بدر[6] في قيام حركة فكرية واسعة النّشاط فضلاً عن موروثها الثّقافي، فالكوفة هي من أغنى البلدان من النّاحية الثّقافية، إذ كانت ملتقى التّيارات الحضارية كالحضارة البابلية والآشورية والكلدانية والفارسية واليونانية[7]، فأصبحت بذلك مركزاً للإشعاع الفكري، ومما ساعد على ذلك أنّ الحيرة -وهي المركز العلمي المهم- لم تكن تبعد سوى مسافات قليلة عن الكوفة.

ويعد الصّحابي الجليل عبد الله بن مسعود من أبرز رجالات الكوفة، فقد نشطت الكوفة في عهده بمختلف العلوم، وكان لمكانته من رسول الله(ﷺ) أثره في تحلق النّاس حوله، واقترنت الكوفة بالإمام علي(عليه السلام) الّذي جعل منها عاصمة لخلافته، فأخذت المدينة وخصوصاً جامعها طابعاً علمياً واسع النّطاق، فقد ألقى الإمام(عليه السلام) في جامع الكوفة قسماً من خطبه البليغة العظيمة الّتي ضمها كتاب «نهج البلاغة» تلك الخطب النّفيسة الّتي تعد من روائع الأدب العربي، وتحتل مكاناً من البلاغة بعد القرآن الكريم، وقد أشاد(عليه السلام) بالكوفة قائلاً: «الكوفة جمجمة الإسلام، وكنز الإيمان وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء، وأيم الله لينصرنّ الله بأهلها من مشارق الأرض ومغاربها كما انتصر بالحجارة»[8].

وقد استطاع علماء الكوفة النّهوض بالعلم نهضة واسعة في العصرين الأموي والعبّاسي، ونبغ فيهم علماء كبار حملوا مشعل الفكر العربي الإسلامي، ففي بداية العصر العبّاسي عادت الكوفة للبروز من جديد كعاصمة للدولة العربية الإسلامية، فحظيت باهتمام العبّاسيين، لكن هذا الاهتمام لم يدم طويلاً لميول الكوفة العلوية، لذلك وقع الاختيار على بغداد لتكون حاضرة الدّولة، وليسهم علماء الكوفة في تطوير حركتها الفكرية جنباً إلى جنب مع إخوانهم البصريين، لكن المتتبع لأخبار الكوفة خلال فترة الدّراسة، يلاحظ أنّ الكوفة لم تفقد شيئاً من مكانتها وأهميتها، فقد استمرت بعطائها الفكري، وتطورت في هذه المدينة العريقة، مختلف العلوم الدّينية كالتّفسير والقراءات والحديث والفقه، وفي اللغة والنّحو وضعت الكوفة الأسس العامة لهذين العلمين الّتي مهدت السّبيل أمام المدارس النّحوية المختلفة فكانت مدرسة الكوفة النّحوية، الّتي ظهر فيها علماء معرفون مثل الهراء «١٨٧هـ» والفراء «٢٠٧هـ» وثعلب «٢٩١هـ» وغيرهم من الّذين وضعوا أسس اللغة وقواعدها.

وفي مجال علم التّاريخ فقد برز عدد من المؤرخين والإخباريين الكوفيين ممن ساهموا في إغناء التّراث العربي الإسلامي وصنفوا في حقول التّاريخ الخاص والعام والرّجال والأنساب، وكذا الحال في العلوم الأخرى من طب وكيمياء وفلسفة وعلم الكلام وتصوف.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص٢٤٤.

(٢) الصّولي، أخبار الرّاضي، ص٨٨.

(٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج٤ ق١، ٢٩٩/١، الهمذاني، تكملة تاريخ الطّبري، ص٣٠٧.

(٤) الصّولي، أخبار الرّاضي، ص٢٤٠، ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، ٦٤/٣، القلقشندي، مآثر الأناقة، ٢٨٣/١، السّيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٧.

(٥) القزويني، زكريا بن محمّد بن محمّد «ت: ٦٨٢هـ»، آثار البلاد في أخبار العباد، ط بيروت ١٩٦٠م، ص٨٧، الزّركشي، محمّد بن عبد الله «ت: ٧٩٤هـ»، إعلام السّاجد بأحكام المساجد، تحقيق: الشّيخ أبو الوفا مصطفى المراغي، ط القاهرة ١٣٨٥هـ ص٢٠٤، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص٢٤٥.

(٦) ابن سعد، الطّبقات الكبرى، ٩/٦.

(٧) أمين، أحمد، فجر الإسلام، ط٧ القاهرة ١٩٥٥م، ص١٧٩.

(٨) ابن سعد، الطّبقات الكبرى، ٦/٦.

المبحث الأوّل

مراكز الحياة الفكرية في الكوفة

١- المساجد:

للمساجد أهمية كبيرة في حياة المسلمين، فقد اتخذت منذ تأسيسها أماكن للعبادة، ودوراً للقضاء، ومقرات لتجمع الجيوش، واستقبال الشّعراء إلى جانب كونها موائل للتعلم[١].

ومع تخطيط مدينة الكوفة سنة «١٧هـ»، خطط معها جامعها العظيم، ليبدأ إشعاع الكوفة الفكري وتبدأ مساهمتها في دفع عجلة العلم إلى الإمام وهذا الجامع يعد أقدم مؤسسة علمية تربوية في تاريخ الكوفة، أخذت على عاتقها احتضان العلم والعلماء على أرضه المباركة[٢]، إذ كانت أرجاؤه تشهد حركة علمية وفكرية واسعة، كلّ في مجال اختصاصه، فكانت هناك حلقات لدرس الفقه، وحلقات لدرس الحديث، وأيضاً حلقات الشّعر، وكان الإمام أبو حنيفة «١٥٠هـ» من جملة العلماء الّذين كانوا يلقون دروسهم في مسجد الكوفة، وطلبته حوله يشكلون حلقة[٣].

كما كان الإمام عبد الرّحمن السّلمي التّابعي يملي في المسجد الجامع بالكوفة ويعلم القرآن ويقرئه، وبقي يقرئ النّاس بجامع الكوفة أكثر من أربعين سنة[٤] وكان الشّاعر الكميت بن زيد «ت: ١٢٩هـ» يعلم الصّبيان الشّعر في مسجد الكوفة[٥].

وارتفعت أسهم مسجد الكوفة العلمية، بعد زيارة الإمام جعفر بن محمّد الصّادق(عليه السلام) «ت: ١٤٨هـ» إلى الكوفة، إذ ذكر الحسين بن علي بن زياد البجلي الكوفي أنّه أدرك في مسجد الكوفة تسعمئة شيخ كلّهم يقول حدثني جعفر بن محمّد الصّادق[٦]، وهذا يعني أنّ هناك تسعمئة حلقة دراسية في مسجد الكوفة كما كانت لمعاذ الهراء «ت: ١٨٧هـ» حلقة تدريسية يدرس فيها النّحو[٧]، وكان محمّد بن القاسم أبو بكر الأنباري «ت: ٣٢٨هـ» يجلس في ناحية من المسجد وأبوه في ناحية أخرى ويملون أحاديثهم على طلابهم، الّذين كانوا يتحلقون حولهم[٨].

وإلى جانب مسجد الكوفة، فإنّ مساجد المحلات المنتشرة في أرجاء الكوفة كان لها دور كبير في تطوير الحركة الفكرية في الكوفة، إذ كان أئمّتها من العلماء فكان حمزة بن حبيب الزّيات «ت: ١٥٦هـ» القارئ المشهور، يقرأ القرآن على أصحابه في مسجده[٩]، كما كان جابر بن نوح الحماني أبو بشر الكوفي «ت: ٢٠٣هـ» إمام مسجد بني حمان يحدث عن الأعشى وابن أبي خالد[١٠]، وكان جعفر بن بشر أبو محمّد البجلي الوشاء «ت: ٢٠٨هـ» يحدث في مسجده الّذي عرف باسمه[١١].

٢- مجالس العلماء:

كانت المجالس العلمية الّتي يعقدها العلماء في الكوفة، إحدى المرتكزات الأساسية الّتي ارتكزت عليها الحركة الفكرية في هذه المدينة، وكانت هذه المجالس تعقد في أماكن متفرقة من الكوفة، فبعضها كانت تعقد في المساجد، وبعضها الآخر في الطّرقات، وبعضها الآخر كان يعقد في دور العلماء أنفسهم، ومن أهم المجالس العلمية الّتي كانت تعقد في الكوفة هي:

أ- مجلس سليمان الأعمش «ت: ١٤٨هـ»:

أبو محمّد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم، حدث عن أبي أوفى وأبي وائل والكبار، وكان محدث الكوفة وعالمها[١٢]، وكان مجلسه من المجالس المشهورة بالكوفة، وفي ذلك يقول عيسى بن يونس «ما رأينا في زماننا مثل الأعمش ولا الطّبقة الّذين كانوا قبلنا، ما رأينا الأغنياء

---

(١) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، ط القاهرة، د. ت، ص٤٢٧، شلبي، أحمد، تاريخ التّربية الإسلامية، ط بيروت، ١٩٥٤م، ص٨٤- ٨٥.

(٢) الحكيم، حسن «الكوفة من الجامع إلى الجامعة» مؤتمر كلية الفقه، دور الكوفة والتّراث العربي الإسلامي ١٩٨٨م، ص١٩.

(٣) القرشي، محي الدّين أبو محمّد عبد القادر بن أبي الوفاء الحنفي «٧٧٥هـ»، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ط الهند ١٣٣٢هـ ٣٣٧/١.

(٤) ابن الجزري، شمس الدّين أبو الخير محمّد بن محمّد «ت: ٨٣٣هـ»، غاية النّهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج. برجستراسر، ط القاهرة ١٩٣٢م، ٣/١.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص٥٤٧.

(٦) النّجاشي، أحمد بن علي بن أحمد بن العبّاس «ت: ٤٥٠هـ»، الرّجال، ط طهران د. ت، ص٣١، القمي، عبّاس، الكنى والألقاب، ط النّجف ١٩٥٦م، ٢٤٦/٣.

(٧) الكشي، أبو عمرو محمّد بن عمر بن عبد العزيز «ت: ٣٤٠هـ»، رجال الكشي، ط النّجف د. ت، ص٢٠٨، الصّدر، حسن، تأسيس الشّيعة لعلوم الإسلام، ط بغداد د. ت، ص١٤١.

(٨) ياقوت، شهاب الدّين أبو عبد الله الحموي «ت: ٦٢٦هـ»، معجم الأدباء، ط القاهرة د. ت، ٣٠٧/١٨.

(٩) الزّجاجي، أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق «ت: ٣٤٠هـ»، مجالس العلماء، تحقيق: عبد السّلام هارون، ط الكويت ١٩٦٢م، ص٢٦٧.

(١٠) السّمعاني، أبو سعد عبد الكريم «ت: ٥٦٢هـ»، الأنساب، اعتنى بتصحيحه والتّعليق عليه الشّيخ عبد الرّحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط١ الهند ١٩٦٢م، ٢٣٦/٤، الخزرجي، صفي الدّين أحمد بن عبد الله «٩٢٣هـ»، خلاصة تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرّجال، ط٣ حلب ١٩٧٩م، ص٥٩.

(١١) ابن داود، تقي الدّين الحسن بن علي «٧٠٧هـ»، كتاب الرّجال، حققه وقدم له السّيد محمّد صادق بحر العلوم، ط النّجف ١٩٧٢م، ٦٢/١.

(١٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب، ٢٢٠/١.

والسّلاطين في مجلس قط أصغر منهم في مجلس الأعمش وهو يحتاج إلى درهم»[1].

ب- مجلس علي بن هاشم بن البريد العائد مولاهم أبو الحسن الكوفي الخزاز «ت: ١٨١هـ»:

كان يحدث عن هشام بن عروة ومحمّد بن عبد الرّحمن بن أبي ليلى والأعمش، وكان له مجلسٌ يعقد بالكوفة، حضره أحمد بن حنبل قبل سنة «١٧٩هـ» وسمع منه[2].

ج- مجلس عبد السّلام بن حرب الحافظ الكوفي «ت: ١٨٧هـ»:

كان مسنداً معمراً حافظاً ولد في حياة الصّحابة يجلس في السّنة مرة مجلساً عاماً[3].

د- مجلس ابن الأعرابي «ت: ٢٣١هـ»:

أبو عبد الله محمّد بن زياد الأعرابي، مولى بني هاشم، صاحب اللغة من أهل الكوفة، وكان أحد العالمين باللغة والمشار إليهم في معرفتها كثير الحفظ لها[4]، قال ثعلب «شاهدت ابن الأعرابي، وكان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان كلّ يسأله أو يقرأ عليه ويجيب من غير كتاب»[5]، ولم يكن هؤلاء الّذين يحضرون مجلسه من مدينة واحدة، بل كانوا من مدن مختلفة متباعدة، حدث أنّه رأى في مجلسه يوماً رجلين يتحدثان، فقال لأحدهما: من أين أنت؟ فقال: من اسفيجاب[6]، قال للآخر: من أين أنت؟ فقال من الأندلس فعجب من ذلك وأنشد:

رفيقان شتّى ألّفَ الدّهر بيننا
وقد يلتقي الشّتّى فيأتلفان[7]

هـ- مجلس ابن عقدة «٣٣٢هـ»:

أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن سعيد الكوفي[8]، كان له مجلس مشهور يحضره طلاب العلم ليكتبوا عنه الحديث وغيره من العلوم، وعن أبي الطّيب أحمد بن الحسن بن هرثمة قال: «كنا بحضرة أبي العبّاس بن عقدة الكوفي المحدث نكتب عنه، وفي المجلس رجل هاشمي إلى جانبه، فجرى حديث حفاظ الحديث، فقال أبو العبّاس أنا أجيب في ثلاثمئة ألف حديث من حديث أهل بيت هذا وضرب بيده على الهاشمي»[9].

وإلى جانب هذه المجالس العامة كانت هناك مجالس علمية تعقد في بيوت العلماء، فكان للفقيه المقرئ عبد الرّحمن بن أبي ليلى «ت: ١٤٨هـ»، دار يجتمع فيه القراء وفي ذلك يقول مجاهد «كان لعبد الرّحمن بن أبي ليلى بيت يجتمع فيه القراء فيه مصاحف، فقلما تفرقوا إلا عن طعام»[10].

وكان أبو الأحوص سلام بن سليم الحنفي مولاهم الكوفي «١٧٩هـ»، صاحب المسند والأتباع، يحدث في داره[11]، وكان إذا امتلأت الدّار يقول لابنه: «انظر فمن رأيته يشتم الصّحابة فأخرجه، وكان حديثه نحو من أربعة آلاف حديث»[12].

ومن المحدثين في بيوتهم عمر بن سعيد أبو داود الحفري «ت: ٣٠٧» وقد كتب عنه عثمان بن أبي شيبة في بيته[13].

٣- الكتاتيب:

الكتاب والمكتب، موضع تعليم الصّبيان وجمعها الكتاتيب والمكاتب، ويرى المبرد أنّ المكتب موضع التّعليم، والمكتب المعلم، والكتاب الصّبيان[14].

والمكتب لقب يقال لمن يعلم الصّبيان الخط والأدب[15].

وقد عرفت الكتاتيب في الدّولة العربية الإسلامية منذ صدر الإسلام، ورافقت التّعليم عند المسلمين في جميع أدواره حتّى بعد انتشار دور العلم والمدارس[16]، والأخبار الّتي وصلتنا عن

(١) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله «ت: ٤٣٠هـ»، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٣ بيروت ١٩٨٠م، ٤٧/٥- ٤٨، وانظر: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت «ت: ٤٦٣هـ»، كتاب الكفاية في علم الرّواية، ط٢ الهند ١٩٧٠م، ص٨٢- ٩٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدّين أبو الفضل أحمد بن علي «ت: ٨٥٢هـ»، تهذيب التّهذيب، ط١ الهند ١٣٢٦هـ، ٣٩٢/٧- ٣٩٣.

(٣) الذّهبي، شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان «ت: ٧٤٨هـ»، تذكرة الحفاظ، ط٣ الهند ١٩٥٥م، ٢٧١/١.

(٤) السّمعاني، الأنساب، ٣٠٧/١- ٣٠٨.

(٥) ياقوت، معجم الأدباء، ١٩٠/١٨- ١٩١، السّيوطي، جلال الدّين عبد الرّحمن «ت: ٩١١هـ»، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط١ مصر ١٩٦٥م، ١٠٥/١، وانظر: شهوان، كامل سعيد عواد، ابن الأعرابي دراسة وتحقيق كتاب النّوادر وجميع مروياته، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد ١٩٧٦م، ص٤٧.

(٦) اسفيجاب: بلدة كبيرة في بلاد ما وراء النّهر، ياقوت، معجم البلدان، ١٧٩/١.

(٧) ثعلب، أبو العبّاس بن يحيى «ت: ٢٩١هـ»، مجالس ثعلب، شرح وتحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، ط مصر ١٩٤٨م، ص٥٦.

(٨) الطّوسي أبو جعفر محمّد بن الحسن «ت: ٤٦٠هـ»، الفهرست، ط٢ النّجف ١٩٦٥م، ص٥٢- ٥٣.

(٩) التّنوخي، أبو علي المحسن بن علي بن محمّد «ت: ٣٨٤هـ»، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشّالجي، ط بيروت ١٩٧٢م، ٢٢٩/٥.

(١٠) الأصبهاني، حلية الأولياء، ٣٥٠/٤- ٣٥١.

(١١) الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال، ص١٦٠.

(١٢) الذّهبي، تذكرة الحفاظ، ٢٥٠/١.

(١٣) السّمعاني، الأنساب، ١٩٤/٤.

(١٤) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم الأفريقي المصري «ت: ٧١١هـ»، لسان العرب، ط بيروت ١٩٥٥- ١٩٥٦م، مادة مكتب.

(١٥) ابن الأثير، عز الدّين أبي الحسن علي بن محمّد «ت: ٦٣٠هـ»، اللباب في تهذيب الأسماء، ط القاهرة ١٣٥٧هـ ٧٢/٣.

(١٦) معروف، ناجي، أصالة الحضارة العربية، ص٣ بيروت ١٩٧٥م، ص٣٥٢.

الكتاتيب في الكوفة غير كاملة، فلم نجد في المصادر إشارة إلى عددها أو أماكنها أو المناهج الّتي كانت تدرس فيها، غير أنّ هناك إشارات إلى وجود المعلمين الّذين كانوا يقومون بوظيفة تعليم الصّبيان خلال مدة هذه الدّراسة، فقد أشارت المصادر إلى أنّ الشّاعر الكميت بن زيد «ت: ١٢٩هـ» كان يعلم الصّبيان في مسجد الكوفة[١]، وكذلك كان يفعل ليث بن أبي سليم بن زنيم الليثي «١٤٣هـ» الّذي وصف بأنّه كان معلماً بالكوفة[٢] وبشر بن عمار النّخعي الكوفي المكتب «كان حياً قبل ١٤٨هـ»، أحد الرّواة عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق «ت: ١٤٨هـ»[٣].

وكان إسحاق بن مرار أبو عمرو الشّيباني في الكوفة «٢١٣هـ»، يعلم ويؤدب أولاد النّاس من بني شيبان[٤]، كذلك كان يفعل محمّد بن عمران بن زياد الضّبي أبو جعفر النّحوي الكوفي «ت: ٢٥٥هـ» الّذي كان يعلم الصّبيان بالكوفة قبل أن يتصل بالخليفة المعتز ويؤدب أولاده[٥].

ومن خلال ما تقدم نستطيع القول بوجود الكتاتيب الّتي كانت تختص بتعليم الصّبيان في مدينة الكوفة، والّتي يشرف عليها المعلمون، أمّا عن مناهج الدّراسة في هذه الكتاتيب، فاغلب الظّن أنّها لا تتعدى تعليم القرآن واللغة كمرحلة أولى.

٤- المكتبات:

تعد المكتبات من الدّعائم الأساسية الّتي تبنى عليها صروح الحضارة والثّقافة والعلوم، والينابيع الّتي تغذي تقدم الأمم العلمي والحضاري[٦].

ومن هذا المنطلق كان للكوفيين كبير الاهتمام في اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الضّخمة الّتي تضم بين طياتها مختلف الكتب وفي جميع ألوان العلم والمعرفة، وهذا بلا شك كان له دور كبير في تطوير الحياة الفكرية بالمدينة ورفدها بمقومات التّواصل والنّجاح، ومن أهم المكتبات في الكوفة خلال هذه الفترة.

أ- خزانة الكتب العامة في مسجد الكوفة:

في طبيعة الأمر لا يوجد بين أيدينا نصوص تشير صراحة إلى وجود هكذا خزانة للكتب في مسجد الكوفة، ولكن لكون مسجد الكوفة كان صرحاً علمياً شامخاً ومركز ثقل الحياة الفكرية في الكوفة، فإنّ ذلك يقودنا إلى القول بحتمية وجود مكتبة كبيرة ضخمة في نفس الوقت، يدعمنا في قولنا هذا أنّ إسحاق بن مرار الشّيباني وهو من اللغويين الكوفيين «ت: ٢١٣هـ»، جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة من العرب وأخرجها للناس في مسجد الكوفة، وحكي عن عمرو ابنه قال: «لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى النّاس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة، حتّى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه»[٧].

وبطبيعة الحال لا بد أن يكون هناك مكان يحتضن تلك الأشعار الّتي كان يخرجها إسحاق في مجلدات إلى النّاس في مسجد الكوفة، وكذلك يحفظ المصاحف الّتي كان يكتبها بخطه ويضعها في المسجد.

ب- خزائن الكتب الخاصة:

برز في الكوفة العديد من العلماء المشهورين بحبهم العلوم والثّقافة، ورغبتهم في اقتناء مصادرها مما ساعد على نشوء المكتبات الخاصة، ومن أهم خزائن الكتب الخاصة:

١- خزانة محمّد بن عبيد الله الفزاري «ت: ١٥٥هـ»:

محمّد بن عبد الله بن أبي سليمان العرزمي الفزاري أبو عبد الرّحمن، أحد المحدثين حدث عن عطاء ومكحول وعنه سفيان وشعبة وطائفة[٨]، كما أنّه كان يعد من القراء الصّالحين وقد أخذ القراءة عن عاصم، وروى القراءة عنه أبو عاصم الضّرير[٩]، وكان محمّد الفزاري يمتلك خزانة كتب خاصة به إلا أنّه عمد إلى دفنها فكان بعد ذلك يحدث من حفظه ولذا ضعفه بعض المحدثين[١٠].

٢- خزانة سفيان بن سعيد الثّوري «٩٧- ١٦١هـ»:

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثّوري، كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم، وأجمع النّاس على دينه وورعه وهو

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص٥٤٧، المرزباني، أبو عبيد الله محمّد بن عمران بن موسى «ت: ٣٨٤هـ»، الموشح، تحقيق: علي محمّد البجاوي، ط مصر ١٩٦٥م، ص٣٠٢.

(٢) السّمعاني، الأنساب، ١٠٠/١.

(٣) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدّين أبو الفضل، محمّد بن علي «ت: ٨٥٢هـ»، لسان الميزان، ط٢ بيروت ١٩٧١م، ٢٧/٢.

(٤) ياقوت، معجم الأدباء، ٧٨/٦، القفطي، جمال الدّين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف «ت: ٦٤٦هـ»، أنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل، ط القاهرة ١٩٥٠م، ٢٢١/١.

(٥) الصّفدي، صلاح الدّين خليل بن أيبك «ت: ٧٦٤هـ»، الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر، ط طهران ١٩٦١م، ٢٣٥/٤، ابن قاضي شهبة، تقي الدّين الأسدي الشّافعي «٨٥١هـ»، طبقات النّحاة واللغويين، تحقيق: د. محسن غياض، ط النّجف د. ت، ص٢٢٢.

(٦) حمادة، محمّد ماهر، المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، ط١ الكويت ١٩٧٠م، ص٧.

(٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٢٩/٦، القفطي، أنباه الرّواة، ٢٢١/١.

(٨) الذّهبي، شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان «ت: ٧٤٨هـ»، ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق علي محمّد البجاوي، ط١ مصر ١٩٦٣م، ٦٣٥/٣.

(٩) ابن الجزري، غاية النّهاية، ١٩٤/٢.

(١٠) الذّهبي، ميزان الاعتدال، ٦٣٦/٣.

أحد الأئمّة المجتهدين[1]، ووصفه يحيى بن معين قائلاً: «سفيان أمير المؤمنين في الحديث»[2]، وكان سفيان متخفياً من الخليفة المهدي، بعد أن رفض طلبه في تولية قضاء الكوفة، وكانت البصرة مكان اختفائه، لذلك عمد سفيان إلى دفن كتبه، وفي هذا الصّدد يذكر الخطيب البغدادي بإسناده عن أبي الأسود الحارثي قال: «خاف سفيان شيئاً فطرح كتبه «أي دفنها» فلما أمن، أرسل إلى والي يزيد بن توبة المرهبي، فجلنا نخرجها فأقول: يا عبد الله، وفي الرّكاز الخمس، وهو يضحك فأخرجنا تسع قمطرات، كلّ واحدة إلى ها هنا وأشار إلى أسفل ثدييه، قال: فقلت له اعرض لي كتاباً فحدثني به»[3].

وقد عقب ابن الجوزي على دفن سفيان كتبه قائلاً: «إنّ من دفن كتبه لسبب مشروع كان يكون فيها أشياء مدخولة لم يستطع تمييزها أو لم يشا نشرها فلا بأس به ومثل ذلك فعل سفيان الثّوري وبعض الأكابر»[4].

٣- خزانة داود بن نصير الطّائي «ت: ١٦٠ أو ١٦٥هـ»:

أبو سليمان داود بن نصير الطّائي الكوفي، كان كبير الشّأن، سمع الحديث واشتغل مدة بالفقه، ثمّ اختار العبادة والزّهد، فبلغ منها الغاية[5]، وكان داود الطّائي أحد علماء الكوفة ممن يمتلكون خزانة كتب خاصة به، ولكنه مع الأسف عمد إلى إتلافها مما حرمنا من الاستفادة من تلك الثّروة الكبيرة، وإلى ذلك يشير الخطيب قائلاً: «اعمد على كتبه فأغرقها في الفرات»[6]، وقيل أنّه دفنها في الأرض[7].

٤- خزانة علي بن مسهر القرشي «ت: ١٨٩هـ»:

أبو الحسن علي بن مسهر القرشي، قاضي الموصل[8]، ومن ثمّ ولي قضاء أرمينية، فاشتكى عينه، فدس القاضي الّذي كان بأرمينية إليه طبيباً فكحله، فذهبت عينه فرجع إلى الكوفة أعمى، وكان قد دفن «خزانة كتبه» وبعد أن ذهب بصره كان يحدث من حفظه[9]، ووُصف بانه كان من متقني أهل الكوفة[10].

٥- خزانة ابن الأعرابي «ت: ٢٣١هـ»:

أبو عبد الله محمّد بن زياد الأعرابي، مولى بني هاشم صاحب اللغة من أهل الكوفة[11]، وصفه ياقوت قائلاً: «كان من أكابر أئمّة اللغة المشار إليهم في معرفتها نحوياً..»[12]، واشتهر ابن الأعرابي بحبه للكتب ومصاحبته لها، يقول ابن عون كنت عند أبي أيوب أحمد بن محمّد بن شجاع، فبعث إلى ابن الأعرابي يسأله المجيء، فعاد الغلام فقال: «قد سألته ذلك فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربي معهم أتيت، فقال الغلام: ما رأيت عنده أحداً، إلا أنّي رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها، فينظر في هذه مرة، وفي هذه مرة، وقد جاء فقال له أيوب: ما رأى عندك أحداً فقلت له: أنا مع قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربي معهم أتيت»[13]، فقال:

لنا جلساء ما نملُّ حديثهم
ألبّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم من مضى
وعقلاً وتاديباً ورأياً مسددا
بلا فتنة تُخشى ولا سوء عشرة
ولا نتقي منهم لساناً ولا يدا[14]

٦- خزانة أبي كريب الهمذاني «ت: ٢٤٨هـ»:

أبو كريب محمّد بن العلاء بن كريب الهمذاني الكوفي، أحد الأعلام روى عنه المبارك وهشيم وسفيان الثّوري، وسفيان بن عيينه[15]، وكان قد أكثر من رواية الحديث حتّى إنّ ابن عقدة قال عنه: «ظهر له بالكوفة ثلاثمئة ألف حديث»[16]، وكان أبو كريب قد أوصى قبل وفاته بأن تدفن كتبه معه فدفنت[17].

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣٨٦/٢.
(٢) السّيوطي، طبقات الحفاظ، ص٨٩.
(٣) تاريخ بغداد، ١٦١/٩، وانظر: عواد، كوركيس، خزائن الكتب القديمة في العراق، ط بغداد ١٩٤٨م، ص١٩١- ١٩٢.
(٤) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرّحمن «ت: ٥٩٧هـ»، صيد الخاطر، ضبط وتحقيق: محمّد الغزالي، ط مصر د. ت، ص٣٢.
(٥) ابن الملقن، سراج الدّين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري «ت: ٨٠٤هـ»، طبقات الأولياء، حققه وأخرجه نور الدّين شريبة، ط مصر ١٩٧٣م، ص٢٠٠، الحسيني، محمّد أبو الفيض، جمهرة الأولياء وأعلام أهل التّصوف، ط١ مصر ١٩٦٧م، ١٢٢/٢.
(٦) تاريخ بغداد، ٣٤٧/٨.
(٧) حاجي خليفة، مصطفى عبد الله «ت: ١٠٦٧» كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، ط بيروت د. ت، ٥٢/١.
(٨) ابن سعد، الطّبقات الكبرى، ٣٨٨/٦.
(٩) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التّهذيب، ٣٨٣/٧- ٣٨٤.
(١٠) البستي، محمّد بن حيان «ت: ٣٥٤هـ»، مشاهير علماء الأمصار، عني بتصحيحه م. فلايشهمر، ط القاهرة ١٩٥٩م، ١٧١.
(١١) السّمعاني، الأنساب، ٣٠٧/١- ٣٠٨.
(١٢) ياقوت، معجم الأدباء، ١٨٩/١٨- ١٩٠.
(١٣) المصدر نفسه، ١٩٥/١٨، السّيوطي، بغية الوعاة، ١٠٦/١.
(١٤) الزّبيدي، محمّد بن الحسن «ت: ٣٧٩هـ»، طبقات النّحويين واللغويين، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط مصر ١٩٧٣ن، ص١٩٧.
(١٥) السّيوطي، جلال الدّين عبد الرّحمن «ت: ٥٩١هـ»، طبقات الحفاظ، تحقيق: علي محمّد عمر، ط١ مصر ١٩٧٣م، ص٢١٧.
(١٦) الخزرجي، خلاصة الكمال، ص٣٥٥.
(١٧) الذّهبي، تذكرة الحفاظ، ٤٩٧/٢.

خزانة ثعلب «ت: ٢٩١هـ»:

أبو العبّاس أحمد بن يحيى بن زيد النّحوي المشهور بثعلب، إمام الكوفيين في عصره لغة ونحواً[١]، ولثعلب مصنفات عديدة في مجال اللغة والنّحو[٢]، أمّا عن خزانة كتبه فقد بيعت بعد وفاته، قال ياقوت: «إنّ ثعلباً خلف كتباً جليلة فأوصى علي بن محمّد الكوفي أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن إسحاق القطربلي فقال الزّجاج للقائم بن عبيد الله: هذه كتب جليلة فلا تفوتك، فأحضر خيران الوراق فقدّر ما كان يساوي عشرة دنانير بثلاثة فبلغت أقل من ثلاثمئة دينار، فأخذها القاسم بها»[٣].

٨- خزانة أبي بكر الأنباري «ت: ٣٢٨هـ»:

أبو بكر محمّد بن القاسم بن بشار بن الحسن الأنباري، من أهل الكوفة النّابهين ووصف بأنّه كان أكثر الكوفيين حفظاً للغة والشّواهد، قال أبو علي القالي: «كان يحفظ ثلاثمئة ألف بيت شاهد في القرآن»[٤]، وكان ابن الأنباري يملي أحاديث في ناحية من مسجد الكوفة، وأبوه في ناحية أخرى[٥].

أمّا عن خزانة كتبه فقد أشار إليها والده، حينما مرض محمّد فعاده أصحابه فرأوا من انزعاج والده أمراً عظيماً، فطيبوا نفسه فقال: «كيف لا انزعج وهو يحفظ جميع ما ترون وأشار إلى خزانة مملوءة كتباً»[٦].

٩- خزانة ابن عقدة «ت: ٣٣٢هـ»:

حافظ العصر والمحدث الحبر أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن سعيد الكوفي المعروف بابن عقدة[٧]، وذكره الدّارقطني فقال: «أجمع أهل الكوفة أنّه لم يرو من زمن عبد الله بن مسعود إلى زمن أبي العبّاس ابن عقدة أحفظ منه»[٨].

ولابن عقدة كتب كثيرة منها، كتاب التّاريخ، كتاب الآداب، كتاب السّنن، كتاب من روى عن أمير المؤمنين، كتاب فضل الكوفة، كتاب الآداب[٩] وكان لابن عقدة خزانة كتب كبيرة أشار إليها الخطيب البغدادي قائلاً: «أراد أبو العبّاس أن ينتقل من الموضع الّذي كان فيه إلى الموضع الآخر فاستأجر من يحمل كتبه وشارط الحمالين أن يدفع لكلّ واحد منهم دانقاً، ولكلّ كرة، فوزن لهم أجورهم مئة درهم، وكانت كتبه ستمئة حمل»[١٠].

❖ ❖ ❖

(١) النّووي، أبو زكريا محي الدّين بن شرف «ت: ٦٧٦هـ»، تهذيب الأسماء واللغات، ط بيروت د. ت، ٢٧٥/٢.

(٢) انظر: ابن النّديم، الفهرست، ص١١١.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ١٠٢/٥.

(٤) ابن تغري بردي، جمال الدّين أبو المحاسن الأتابكي «ت: ٨٧٤هـ»، النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط مصر د. ت، ٢٦٩/٣.

(٥) القفطي، أنباه الرّواة، ٢٠٢/٣.

(٦) ياقوت، معجم الأدباء، ٣٠٧/١٨، وانظر: ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرّحمن بن محمّد «ت: ٥٧٧هـ»، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ القاهرة د. ت، ص٢٧١.

(٧) السّيوطي، طبقات الحفاظ، ٣٤٨- ٣٤٩.

(٨) ابن الجوزي، المنتظم، ٣٧٧/٦، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب، ٣٣٢/٢.

(٩) الطّوسي، الفهرست، ٥٢- ٥٣.

(١٠) تاريخ بغداد، ١٨/٥، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب، ٣٣٢/٢.

باب الرحمة في مسجد الكوفة